سايكو

PSYCHO

عمرو المنوفي

عمرو المنوفي سايكو

تصميم الغلاف : أسامة علام



قرأ شخص مقرب مني هذه المجموعة القصصية ، وأخبرني أني **سايكو** : أي مريض نفسياً ، وهي شهادة أعتز بها كثيرا ، إن معظم الكتاب مرضى نفسيون فلا تهمة هنـــا ، لذا أصررت على أن يـــكون هذا عنوانهـــا .

ففي هذه المجموعة سنتحدث عن مفردات جديدة من أدب الرعب ، سنتحدث عن الثلاجة ، الموقد ، الزهرة الصفراء ، القدح ، القط المخيف ، والخادم ، والشيطان الذي يسكن بالوعة الصرف ، وقواعد الطريق وغيرها من القصص التي تنتمي لعالمنا المخيف .

فهل أنت مستعد لخوض تلك الرحلة الشنيعة معي ؟!

هل أنت واثق من كونك ستظل طبيعياً بعد أن تقرأ هذه القصص ؟

الخيار خيارك .

لا تقل أني لم أحذرك .

فالخوف ليس خيارًا !





الكتاب : سايكو

المؤلف : عمرو المنوفي

تصميم الغلاف : أسامه علام

تدقيق لغوي : محسن عباس غريب

رقم الإيداع : 11145/ 2014

الترقيم الدولي : 5-72-6436-977-978

الطبعة الأولى : 2014



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت- 35860372-02 27772007-011

Noon_publishing@yahoo.com

سايكو

مجموعة قصصية

عمرو المنوفي



إهداء خاص جداً

إلى كل تلك الأحداث الغريبة التي مرت بي ، وصنعت مني ما أكون .

إلى كل قارئ رائع بذل مجهودًا كي يصنع سعادتي باقتناء أعمالي .

إلى ذلك الملاك الحارس الذي يسهر على راحتي كي أقلق راحتكم:

زوجتي منى فضل الله.

إلى ملائكة صغار كل ذنبهم أني والدهم : كوثر، محمود ، ملك .

إلى أسرتي الموازية : محمد مظهر، فاتن فاروق - لي لي ، سيف .

إلى أسرة تكونت عبر كتاب وكلمات ، ومجهود رائع ، وحولوا أحلامي إلى حقيقة :

الأستاذ حسام حسين ، والأستاذ هيثم حسن ، وكل فريق عمل دار لون .

إهداء إلى أصدقاء لهم مكانة خاصة عندي، ربما لا يدركها أي منهم مع حفظ الألقاب :

هبة شلبي ، سهر ، نور مانجا ، هبة علي ، سمر الباز، دعاء العناوي ، غادة قناوي ، نسمة طارق ، زمزم صالح، وفاء يحي ، ياسمين حسن ، إيمان خضر، أميرة أيمن ، هبة العطار ، مها حلمي ، هنا بومازن .

نورة حسني ، سلام عيدة ، ريم أبو عيد ، سالي يونس ، شيماء حسبو، محمد عصمت ، تيام الترك ، محمد محسن ، محمود عياد ، أحمد عبد السلام ، محمد محروس ، أحمد عبد المجيد ، حسن يوسف ، محمود خواجة ، شريف عصمت ، محمد دهشان ، عيد إبراهيم . محمود جمال .

الثلاجة

(١)

تقول الأسطورة :

- إن قمة الأدب أن تطرق باب الثلاجة قبل أن تفتحها ..

- وهو شيء جنوني كما أظن .

***

إنه مرهق ..لا يرى أمامه ..يتمنى أن تنتهي درجات السلم الصاعدة ليصل إلى فراشه الوثير المريح؛ كي ينتهي ولو جزء صغير من معاناته اليومية المتجددة.

ملابسه تفوح بالعرق، ورائحة فمه كريهة , لابد وأنه استهلك نصف طن من التبغ اليوم فقط .

يصعد درجات السلم في إعياء كطفل عاجز يحمل بداخل قلبه انكسارات كهل , لم يستقل المصعد فهو يكره الصناديق المغلقة , يدلف من باب الشقة المزخرف بقلب مثقل ونفس يائسة ،وكأنه على وشك الدخول للجحيم .

يصدمه الظلام ..لابد وأنه نسي تبديل مصباح الصالة التالف ، إنه يذكر جيداً أنه اشترى البديل منذ يومين أو أكثر.

هل مضى يومان حقاً ؟.

قائمة كاملة من الأعمال غير المنتهية أو المحسومة تفاجئه ،ولكن لا فائدة لإنجاز أي شيء مهما كان حيويا في غيابها .

رائحة الشقة خانقة وكأنها قبر ، ولكنها ليست أكثر ضيقاً من روحه ، ربما هي رائحة روحه التي اغتيلت بغيابها ، وتتعفن في عالم لا توجد هي فيه .

***

- حبيبي أنت لا تعرف بماذا ضحيت كي أكون معك ..لقد فضلتك على العالم دون مبالغة .

- حبيبتي .. ستثبت لك الأيام أنه مهما كانت فداحة تضحياتك، فهي قطرة معاناة في عالم كامل من السعادة .

- حبيبي لقد كانت رحلتي طويلة، ولكني أظن أنني وصلت أخيراً لمرفأ الأمان.

- أحبك .

- أحبك .

***

يوم آخر ضاع هباءً .

ولا يبدو أن الأيام القادمة تبشر بانفراجة ..لا جديد ..لا أمل ..إنه لم يعثر لها على أثر، ولا يبدو أنه سيعثر عليه قريباً.

زوجته التي لم تفترق عنه أبداً سواء في العمل، أو المنزل، أو حتى في الأحلام .

اختفت تماماً ..تلاشت وكأنها ذابت في لجة العدم، وكأنها لم تكن في عالمه لحظة واحدة .

كل الصور التي تجمعهم معاً خلت من وجودها في سابقة لا مثيل لها.

ملابسها تبخرت من الدولاب بعطرها المميز، وترتيبه الذي طالما أبهره.

لمساتها التي أضفت على حياته معناً،ولوناً،وجمالا لم تعد ظاهرة،وتحولت شقته لكوكب خرب بلا حياة .

شيء ما مخيف يعكر صفو حياته، و يحمل له رائحة تلك القصص الخيالية التي قرأها في صباه ولم يمل لها .

إنها ليست هنا ، وهو وحيد يجتر غيابها علقماً.

***

- حبيبي لقد احرقت إصبعك ؛ ألم أنهك عن دخول المطبخ .

- حبيبتي إنه عيد زواجنا، وكنت أتمنى لو أفاجئك ولو بكوب نسكافيه من صنع يدي .

- لقد فاجأتني بما فيه الكفاية ..دع هذه الأمور لي ..صدقني أنت تحتاج لأم لا لزوجة .

- ومن قال أنها بعيدة عني .. أنتِ أمي وأختي وزوجتي ..أنت الحياة ذاتها.

- أحبك .

- أحبك .

***

ما يثير جنونه أنه لاشيء يمكن أن يختفي بمثل هذه الطريقة الغامضة. فما بالكم بإنسانة كاملة تحتل بكيانها حيزاً لا بأس به من الوجود ، وبروحها تصنع عوالم مختلفة .

لا يمكن أن تكون "السي أي إيه " قد اختطفتها و نفذت عليها إحدى تجاربها ، فمحت عقله ومنحته ذاكرة بديلة، فجعلته يعشق سراباً ،ويحيا حياةً كاملةً من الوهم ..هل تكون المخلوقات الفضائية قد اختطفتها .أي عبث هذا الذي يفكر فيه ؟!.

أن عشقها لعلم الفلك والقصص الخيالية لا يمكن أن يعصف به، ويؤثر عليه بهذا الشكل .

***

- حبيبي هل كنت سترتبط بي لو كنت مخلوقة من كوكب أخر.

- حتى ولو كنت مخلوقة من شبرا .

- دعك من المزاح أنا أتحدث بجدية .

- أقسم لك إنني لم أكن لأتركك ؛حتى لو كان لك أنياب ومخالب وقرون استشعار.. أنا من داخلي أعتقد أنك مخلوقة من عالم أخر، لا يمكن أن يوجد مثل هذا الكمال على كوكب الأرض .

- نعم أنا من هناك .

- أحبك .

- أحبك .

***

اصطدم بحافة المنضدة فتألم وأطلق آهة مكتومة؛ فتلاشت من عقله تلك الأفكار غير المنطقية ، ولكن لم يتلاش الإرهاق مازال ينشب مخالبه في روحه.

لقد بحث عنها في كل مكان ..لم يترك حجراً فوق حجر في عالمه إلا وقلبه وبحث أسفله..ولكن ما النتيجة ..لاشيء .

لا أحد رآها أو سمع عنها ، وكأنه هو المجنون الوحيد في الكون الذي يؤمن بوجودها .

وكأنها من بنات أفكاره ،أو هلاوسه .

عائلتها .

لا أحد يعرفهم أو سمع عنهم كما لو أنهم تلاشوا مثلها ، أو معها .

أصدقاؤهم المشتركون ..كان رد فعلهم عنيفاً، خاصة عندما ثار على بعضهم أكثر من مرة بعد إنكارهم معرفتها ،أو وجود أي ذكريات مشتركة بينهم، بل ووصل الأمر به أن تعدى على أحدهم ، فنعتوه بالخبل وابتعدوا عنه .

صديقه الوحيد الحقيقي عرض عليه أن يذهب معه لدكتور نفسي شهير ، معللاً بأنه أصيب بالجنون من كثرة القراءة .

لقد أصابته تلك اللعنة التي أصابت د. مصطفى محمود، والتي يتناقل سيرتها العامة عنه..لقد جن هو الآخر من كثرة العلم .

الجهل يطبق الآفاق .

القولبة مشكلة هذه الأمة ، فمن يطلق لحيته يدعونه بالشيخ، ومن يحمل كتابا دائما، ويتحدث ببعض المصطلحات الغامضة يطلقون عليه عالماً .

في عالم العامة تسقط كل المقاييس العلمية والمنطقية ويبقى الانطباع،

اللعنة على الانطباع الذي سيصمه بالجنون أو الخبال .

والغريب أن يأسه جعله بعد فترة يستسيغ الفكرة ويحاول هضمها، ولكنها للأسف ظلت في معدته لم تهزمها العصارة الحمضية بعد، كقطعة لحم غير ناضج .

إن معظم قراءاته تنحصر في الروايات الرومانسية ،وهي لا تحتوي على علم كافٍ ليصيبه بالجنون ، ربما زخم المشاعر هو المتهم الحقيقي هنا .

ولكنه منذ شهور لم يقرأ رواية رومانسية واحدة هزت روحه .

اللعنة على كل النظريات لقد اختنقت وكفى .

إنهم يحاولون إقناعه بالشيء الوحيد الذي يرفضه، برغم كونه التفسير الوحيد والمنطقي للأمر، وقد اجتمعت عليه أراء الجميع .

" الجنون ".

اللعنة ..بعض الأمور غير المنطقية تكون هي الشيء الوحيد المنطقي ،وكأن عقولنا عندما تنهك، تسقط كل أعمدة المنطق، وتفتح الباب لكل ما هو غير ممكن .

هو نفسه تبنى فرضية الجنون لفترة، فبرغم قسوته إلاأنه التفسير القريب والمريح لما يحدث معه، ولكنه كلما تطلع للرسالة عاد عقله للهدير حتى كاد أن يجن بالفعل .

إنه يملك الدليل القاطع على كونه لا يهذي .

رسالتها .

نعم رسالتها .. التي كتبتها على إحدى أوراق البردي المزخرفة ببعض النقوش الفرعونية ، والتي تمنح الورقة قيمة مجهولة . من تلك التي تعج بها المكتبات.

رسالتها التي لم تحتوِ إلا على كلمة واحدة .

الثلاجة .

المخيف في الأمر..أنها كتبتها بالدم .

(٢)

تقول الأسطورة :

- إن قمة الألم ..أن تفتح باب الثلاجة ..ثم تخرج كوباً من الثلج ..وتجرب أن تلعق البخار الملتصق به ..

- أي إنها تجربة غير سارة صدقوني .

***

رمى جسده فوق الفراش غير المرتب، ثم نزع حذاءه المترب ،وألقى به أسفل الفراش، لتصدم أنفه رائحة الجوارب الكريهة، والتي لم يهتم بتبديلها طوال الثلاثة أيام السابقة .

لكنه لم يكن في حالة جيدة ليتذمر ،فرائحة الجوارب تعد من أقل مشاكله حالياً.

الثلاجة .. الثلاجة .. الثلاجة .

لقد فحص الثلاجة ألف مرة ..!

حتى أنه استعان بأحد الفنيين المتخصصين لتفكيكها جزءاً جزءاً ،ولا شيء .

الهيكل المعالج . أنابيب الفريون ..الكومبروسور ..المكونات الأخرى .

لا رسائل ..ولا أي شيء يرشده لخطوة تالية .

تحسس جيب قميصه ،ثم أخرج الرسالة التي تكرمشت، وتهرأت من كثرة ما تفحصها طوال الأيام الماضية .

وكالعادة .. لا يوجد بها غير كلمة واحدة .

الثلاجة ..!!

لقد فحصها ألف مرة .

عيناه كلت وملت من الأمر دون جدوى ..

***

- حبيبي لماذا لا أشعر بوجودك هذه الأيام ..هل هناك شيء سيء حدث ؟.

- لا يا حبيبتي بعض الإرهاق في العمل .

- لماذا لا تترك هذا العمل ؟.

- ومن أين تأكل ؟.

- أنا أستطيع الامتناع عن الطعام لسنوات، وأستطيع أن أدربك على الأمر .

- هل ستعودين لأفكارك الخيالية ؟.

- ولكني لا أشعر بوجودك .

- ها أنا ذا بجوارك .

- أحبك .

- ماذا تقولين ؟!..

- لا شيء ..

***

فكر قليلاً والنوم يطرق أبواب عقله، ثم انتفض في عنف عندما لمعت في عقله فكرة بسيطة وعبقرية .وكاد يصفع نفسه من فرط مشاعره وهو يتساءل :

- كيف غابت عنه هذه الفكرة طوال الفترة الماضية؟، لماذا لم يستخدم عدسة مكبرة في فحص الرسالة من قبل ؟.

هو يعرف أنه يمتلك واحدة، ويعرف أيضاً أن العثور عليها الآن درباً من المستحيل.

الحقيقة الثابتة الآن أن حياته انقلبت رأساً على عقب بعد رحيلها.

في وجودها كان من المعجزات أن يعثر على فردتي جورب متشابهتين، بالرغم من كون زوجته قد طوتهم على هيئة كرات شبه متجانسة، ووضعتهم في درج الدولاب السفلي.فكيف له الآن بالعثور على مثل هذه العدسة الآن؟.

مروة كانت تعرف مكان كل ذرة تراب في المنزل .

أين هي الآن ؟!..

نفض عن نفسه غبار الكسل ، ثم توجه نحو المطبخ وأشعل الموقد ووضع إناءً نظيفاً، وقرر أن يصنع كمية هائلة من القهوة لتساعده على طرد النعاس ، وأشعل لفافة التبغ الأخيرة.

اللعنة ..

كيف نسي أن يشتري علبة تبغ أخرى ؟ .إنها معاناة جديدة تضاف لما يمر به .

جثة الثلاجة ممددة أمامه ، بأجزائها المفككة ، وسرها الغامض .

الدخان يتصاعد أمام عينيه من اللفافة المحترقة، على ضوء مصباح الممر الخافت.

مصباح المطبخ أيضاً تالف..

ألف لعنة !!..

كل شيء في حياته يتداعى وينهار.. إنها نهايته دون شك .

فلو رأى ملك الموت يقترب منه ،وفي يده منجله حاصد الأرواح لما تفاجأ لحظةً واحدةً ،كل شيء يدعوه للقنوط و اليأس ، ولكنه لم ييأس بعد .

نظر إلى الحوض الرخامي ،وكاد أن يفرغ مافي جوفه. لقد أهمل تماماً تنظيف صحاف الطعام ،حتى أن العفن قد غزا كل شيء ، والخبز الذي غزاه الزغب الأخضر خير مثال .. هذا غير الرائحة القاتلة .

انتهت لفافة التبغ الأخيرة . ومعها كل أمل له في مزيد من النيكوتين المقدس،

أطفأ النار على إناء القهوة العملاق . وعاد يتطلع لأجزاء الثلاجة المفتتة في الضوء الخافت . والذي اتخذ كل منهم هيئة مرعبة وفكر في غيظ:
لماذا يصر المحتضرون والهاربون على ترك رسائل غامضة خلفهم ؟!.لماذا يصرون على إشعال حيرتنا ؟!..

جرع من الإناء جرعةً كبيرةً أصابته بمرارة كبيرة . وفجرت الأفكار المجنونة في رأسه .

هل التهمتها الثلاجة ؟! ..

ولكن كيف عرفت أن الثلاجة مصدر تهديد ..؟!

ما هي المقدمات التي تجعل جهاز أصم كهذا لا يكف عن الهدير ليل نهار يصبح مصدر تهديد ؟.

هل كانت تثلج أكثر من المعتاد ؟!، هل كانت تفسد طعامها ؟!، لقد قرأ ذات مرة قصة عن ثلاجة مماثلة ، وضحك كثيرة من تفاهة الفكرة .

ثلاجة تلتهم البشر..

أي سخف هذا ؟!.

***

(٣)

تقول الأسطورة :

- قمة الرعب أن تطرق باب الثلاجة فيرد عليك أحد من الداخل .

- الجنون هو أن تتمنى حدوث ذلك بلا شك .

***

خرج من المطبخ وهو يجرع جرعات إضافية من القهوة، التي تغير طعمها من جراء إهماله، وترك مغلفها معرضاً للهواء .

ليست أول شيء يفسد في حياته ولن يكون الأخير.

الحياة بدون مروة بروفة متجددة للجحيم .

هناك رجال لا يستطيعون العيش بدون أنثى . وربما خلقت الأنثى في الأساس من أجلهم . وهو أحدهم.

إنه صفر كبير في كل ما يتعلق بالأعمال المنزلية والحياتية..إنه يغرق في شبر ماء -كما يقولون-.

ولو كنا في عصر الحيوانات المتوحشة . لما كلف نفسه عناء البحث عن طعام، أو مأوى .وربما استسلم لأول حيوان ذا نابٍ حادٍ ليخلصه من حياته المستحيلة دون أنثى .

خرج إلى الشرفة بعد أن شعر بأن روحه تضيق .

نظر للقمر المبتسم ولشلالات لسيارات المتدفقة في نهر الطريق ،وشعر بغبطة شديد. فبرغم معاناته وما يمر به، فالحياة تمضي وكأنها لا تعبأ بوجوده أو معاناته .

أزاح جريدة قديمة من فوق المقعد، فانعكس ضوء القمر الفضي على سطح العدسة الزجاجي فقبض عليها. وهو يشعر بالامتنان لضعف بصره ولإهماله .

نظر للجريدة بعين زائغة، ثم نحاها جانباً وقبض على العدسة، وهو يشعل مصباح الشرفة .

الضوء الأصفر المطمئن ينتشر ليضيء الشرفة وجزء من حجرة نومه .

المجد كل المجد للمصابيح التي لا تتلف عندما تحتاجها .

أخرج الرسالة وعلى الضوء الأصفر أخذ يتفحصها بالعدسة المكبرة.

لا يعرف لماذا هو على يقين من أنها تحوي سراً آخر خفياً بين طياتها؟.

هناك بعض الشفافية تصيب من يقع في كارثة مماثلة .

إنه يقترب وبشدة من حدود ذلك العالم الغامض الذي ينكشف بالاقتراب منه كل الأسرار.

***

- حبيبي إنك مختلف هذه الأيام وتتأخر كثيراً ...ماذا يحدث في الحقيقة؟

- لاشيء يا حبيبتي ..إنها طبيعة العمل ؟

- ولكنه لم يكن يتطلب كل هذا الغياب .

- الأشياء تتغير يا حبيبتي ؟

- نعم كل شيء يتغير.. كيف لم أنتبه لذلك من قبل

***

ساعة كاملة قضاها في تفحص الرسالة .. لا توجد كلمات بخطوط دقيقة أو كامنة ..فقط تلك الرموز المنقوشة بطريقة أظهرها التكبير على أنها يدوية وليست مطبوعة .

لا شيء غريب .

لا شيء مريب .

فقط كلمة الثلاجة والنقوش الفرعونية المطبوعة على الورق البردي الرخيص .

هل قلت المطبوعة .

إن النقوش مكتوبة يدوياً . واضح جداً أن هناك ليس ما

إذاً الرسالة لم تكن تعني كلمة الثلاجة ذاتها .. بل هي العبارات المنقوشة .

جرى بلهمة صوب غرفة النوم. وفتح الكمبيوتر الشخصي وشبك به وصلة الهاتف

لحظات من التوتر وكل مشكلات وهموم "الويندوز" تتمثر أمام عينيه ."الويندوز" يتلف في أشد لحظات حياتك سوءاً . هذه هي طبيعة الأشياء.

الرابعة فجراً هل يوجد مقهى" إنترنت "مفتوح حتى هذه الساعة؟!

نغمة "الويندوز" المملة تبدو له كطوق نجاة .

لحظات أخرى من انتظار استقرار النظام . الجهاز يعج بالفيروسات لأن أنظمة الحماية المجانية تفشل دائما .

"جوجل "الصديق الوفي .

لن يبحث عن قلم الآن؛ لأنها رحلة سيزيفية بلا جدوى .

فتح ملف ورد وأخذ يكتب المرادفات باللغة العربية ..

الكلمات تتكون أمام عينيه.

(الثلاجة هي بداية كل شيء ..الحل يكمن في هديرها المنتظم)

نظر للكلمات بعيون غائرة غير مستوعبة ..ثم أعاد قراءتها ..وأمام عينيه تمثلت جثة الثلاجة المفككة .. ثم ردد في سره :

- يا إلهي هل تعود هذه الخردة للحياة مرة أخرى ؟.

راجع الكلمات عدة مرات. وعندما أيقن من أنها لا تحمل معناً آخر .. ترك كل شيء وتوجه صوب المطبخ .

الضوء شحيح بداخل المطبخ .. قشعريرة مفاجئة تجتاح عموده الفقري .. هذه الإضاءة المنخفضة لن تساعده على إتمام مسعاه ..خرج كالملسوع من المطبخ..دار داخل غرف المنزل حتى استطاع إنقاذ أحد تلك المصابيح التي مازالت تنبض بالحياة . ثم قام بتركيبها في المطبخ بعد أن وضع مقعدين فوق بعضهم البعض وكاد أن يطيح من فوقهم ليدق عنقه .

رائحة العفن المخدرة تداعب أنفه وتثير ضيقه .. قلل حدتها بجعل الماء ينهمر فوق الآنية المتسخة .

أحضر من فوق الدولاب العدة المنزلية ،ثم حان الوقت ليقوم بمهمته الكبرى .

إعادة الحياة إلى الثلاجة برغم أن كل خبرته تتلخص في مشاهدته لذلك الفني يقوم بتفكيكها ..ذلك الفني الذي كان يعمل بفلظة ولم يكن رءوفاً بها .

***

- حبيبتي لماذا لا ترتدين ملابس ثقيلة إن الطقس شديد البرودة ؟.

- حبيبي .. إن البرد جزء من تكويني ..البرودة تشعرني بأمل متجدد .

- ألهذا تستحمين في ماء مثلج ؟.

- نعم إنه يحافظ على البشرة والحيوية .

- ولكنه وضع غير طبيعي .

- ومن قال أن الحياة ذاتها شيء طبيعي .

- غريبة الأطوار .

- ماذا قلت ؟

- لاشيء أحدث نفسي .

افترش الأرض والكلمات التي قرأها تتردد في ذهنه :

(السريكمن في هديرها المنتظم) .

كان يشعر بحيرة ..من أين يبدأ ؟ ,لا خبرة لديه في مثل هذه الأمور الفنية .

(السريكمن في هديرها المنتظم) .

لا حل أخر إذاً.

لابد أن يعيد لها الحياة .

بدأ بأول جزء وهو الهيكل المعالج ضد الصدأ. فبدأ يضيف له الأدراج . والأرفف. ويعيد تركيب المصباح الصغير الداخلي ثم سمع الهمس .

نظر حوله برعب فلم يجد شيء ..

قام بتركيب "الكمبورسور" . فخيل إليه أنه سمع صوت شهقة . وكأنه صوت غريق يعود لوعيه بعد قبلة الحياة .

كان يركب الأجزاء بغير حرفية . ولكنها كانت تطيعه في النهاية ..

وبعد ثلاث ساعات نظر لنتيجة عمله .

كارثة !!.

إنه لم يُعِد الثلاجة إلى الحياة ..بل صنع منها مسخاً مشوهاً .

وعندما أغلق بابها الذي لا يبدو أنه سينغلق براحة, سمع صوت تنفس عميق . ورأى ضوءاً خاطفاً يمر عبر جسد الثلاجة. وفي لحظة واحدة عادت وكأنها أفضل من يوم شرائها .

ثم ساد صمت عميق مقبض .

نظر نحو الثلاجة برعب ..إن ما يحدث غير منطقي أبداً ..الأمر خارج الحدود الطبيعية .

البردية غير مخطئة والرسالة كانت تعني الثلاجة بالفعل .

ولكن ما هي الخطوة التالية .

(السريكمن في هديرها المنتظم) .

كاد رأسه أن ينفجر ..إنه في حاجة لجرعة من النيكوتين في حاجة للفافة تبغ جديدة

بحث في كل مكان حتى عثر على سيجارة جافة. أشعلها وصدره يختنق بدخانها المكتوم.

سعل عدة مرات والعبارة تلح على عقله .

(السر يكمن في هديرها المنتظم) .

ومع آخر أنفاس اللفافة المحتضرة جاءت له الفكرة .

الكهرباء .

وفي نفس اللحظة سمع الدقة المكتومة .

قبض على الفيش، ثم قربه من القابس وقلبه ينبض في عنف . فاللحظة التالية مخيفة

الصمت يسود كل شيء، وكأن كل أنفاس من على الكوكب قد احتبست في انتظار اللحظة الحاسمة .

- كرارراك ..وررررركراك.

لقد عاد الهدير.

***

الكهرباء هي التي أعادت مسخ "فرانكنشاتين " للحياة، وهي التي أعادت الثلاجة للحياة .

الهدير المنتظم يبدو كطنين لأسراب هائلة من الذباب .

الهدير يبدو كنداء غامض ..

الثلاجة تناديه

تطلب منه الاقتراب .

إنه خائف، ولكنه يقترب بخطوات مترددة .

تقبض يده المرتجفة على مقبض الباب البارد، فيشعر به يموج بالحياة.

يتردد للحظة ،ثم يجذبه ببطء .

الباب يفتح في هدوء، وخلفه تظهر الدوامة .

دوامة سوداء يظهر فيها وجه زوجته كظل شبحي مخيف .

جزء من الدوامة ينفصل .. يتحول لذراعين مخلبيتين يرغبان في جذبه.

يحاول أن يهرب ,ولكن القبضة الباردة تقبض على جسده،تجذبه نحو الثلاجة .

يصرخ .

يحاول التملص .

القبضة الباردة تؤلمه ولكنه لم يستسلم .

الهدير يتصاعد .

يتحول لفحيح مخيف .

الدوامة تجذبه .

البرودة تتصاعد .

لا يشعر بجسده . أطرافه تغتالها برودة شديدة . هل يفقد الوعي ؟!..

الظلام يطغى على كل شيء من حوله . وأحباله الصوتيه ترفض أن تمنحه صرخه اخيرة .

يغيب عن الوعي .

وفي اللحظة التالية، يعود الهدير المنتظم .

ويعود المطبخ خالياً، لاحياة فيه .

***

عندما عاد له الوعي شعر بأطرافه تتجمد ..نظر حوله فرأى الثلوج في كل مكان، وعلى بعد خطوات لمح جثة زوجته..لم تكن تلك الشابة التي أحبها، وهام بها عشقاً في السابق، بل كانت عجوز كئيبة السحنة بيضاء الشعر متغضنة الملامح. لايوجد على وجهها أي ملامح للحياة.

اقترب من الجثة في خوف ..

نظر نحوها في وجل ..

لمسها ..

وفور أن لمسها، شعر بصاعقة باردة تجتاح جسده ، وشعر بوخز شديد، وأحس بأن الحياة تسحب منه في بطء.

نظر للجثة فوجدها تنتصب جالسة في مشهد يليق بأفلام الموتى الأحياء.

نظر ليديها القابضة على يديه ..

ثم صرخ .

إن شبابه يذوي ..ويبدو كأنه ينتقل إلى العجوز .

شعر بأن مشاعره نفسها تتجمد .

ثم تركته القبضة ..

وأمام عينيه التي ضعفت حدتها أكثر، وجد زوجته "مروة "بشبابها وحيويتها تقف أمامه عارية كقمر منير، وكأنها لا تشعر ببرودة الثلج من حولها .

حاول أن يتحدث فخانه لسانه ..

اقتربت منه ..فشعر بخوف مفاجيء ..وزلزلت البرودة خلاياه .

وقبل أن يفقد الوعي أو ما هو أكثر ،سمع صوتها الناعم يقول بحزن حقيقي :

(سامحني يا حبيبي إنها الطريقة الوحيدة لأعود مجدداً للحياة).

ثم سمع الهدير المنتظم ، وأظلم كل شيء .

وفي الشقة الخالية، ارتفع صوت هدير الثلاجة المنتظم ،ثم وبهدوء فتح الباب وغادرته "مروة" بخطوات هادئة ، وكأنها ملكة تغادر عرشها..في نفس اللحظة التي ارتفع فيها صوت جرس الباب .

ارتدت "مروة " روباً منزلياً فوق جسدها العاري،وتوجهت صوب الباب وفتحته وهي ترسم فوق شفتيها بسمةً واسعةً .

وفي اللحظة التالية دلف شاب وسيم إلى داخل المنزل ،وضمها بقوة فبادلته المشاعر ..وعندما ضمهما فراش واحد سألها :

- لقد جئت في الموعد ..فمتى نتزوج ؟.

ابتسمت في قوة وسطع وجهها وهي تقول :

- قريباً..قريباً جداً .

وفي المطبخ دوى هدير الثلاجة المنتظم ..وكأنه صوت وحش كاسر يستعد لالتهام ضحيته .

(٤)

ـمول الأسطورة :

ـمة الضياع ..أن تتحول إلى ثلاجة .

وداعا.



(1)

الحكمة القديمة تقول :

- حياة بلا أسرار ..هي جنة الفردوس .

- السؤال هنا : هل يوجد فردوسٌ أرضي ؟.

***

كم يكره قيادة السيارات خاصة مع الانقطاع المستفز للكهرباء على مثل هذا الطريق الزلق . الكهرباء أصبحت شحيحة بسبب مشكلات السياسة، وكأننا على وشك العودة للعصور المظلمة . فلماذا يدهشه الأمر الآن ؟.

المطر يعصف بكل شيء خارج السيارة،وقد تأخر الوقت كثيراً عن موعد العودة.

يعشق أسر الشتاء في كل شيء عدا القيادة .

إنه لم يتعلم القيادة عن حب ..فقط ليقي نفسه وزوجته عناء المواصلات العامة والتحرش، التي تتساوى كراهيته لها مع كراهيته لفصل الصيف بجوه الخانق ،ولزوجته، ورائحة عرقه .

هو فقط يكره القيادة ولا يكره الشتاء .

ويؤمن بالمقولة التي تقول :

... الشتاء يحوي من الأسرار ..ما يكفي كشفها ليحيا الكون ...

...

... عن الطريق الرئيسي، واتخذ طريقاً مختصراً قاده ... المنزل وبعينيه المرهقتين لمح أن السيارات قد صفت على ... ولم تترك له مجالاً إلا على طرف الشارع

... آخر وحيوي يضاف لأسباب كراهيته للقيادة .

... سيارته في المكان الوحيد المتاح، وهبط منها مستمتعاً بالمسافة التي سيقطعها على قدميه تحت الأمطار.

الأمطار تغسل الروح لا مجال هنا للإنكار.

قطع الطريق بفرحة طفل اكتشف مؤخراً أن والده يمتلك مصنع الحلوى التي يعشقها . ثم عبر بوابة المنزل بهدوء ليكتشف أن ضوء الصالة مشتعل .

عدا ما تكشف عنه النافذة الخارجية فابتسم .

مازالت والدته مستيقظة لتطمئن على عودته سالماً.

كم يعشق اهتمامها هذا، والذي يشعره بأنه مازال طفلاً.

لذا قرر أن يفاجئها كما كان يفعل في صباه لينتزع بسمتها الساحرة .

إن أمه سر من أسرار الشتاء ..بل هي أجمل أسراره .

فتح الباب برفق ودلف إلى داخل المنزل دون صوت. خلع معطفه ومسح رأسه المبلل ووجه بمنديل ورقي، ونزع الحذاء متحاشياً أن يصدر أي جلبة . وعلى أطراف أصابعه تسلل إلى الرواق المفضي على الصالة . وكانت هناك مفاجأة .

لم تكن والدته فقط التي تنتظره ..بل كان هناك أبوه أيضاً.

أبوه الذي لم يعتد السهر لهذه الساعة المتأخرة من الليل ..

لابد وأنهما قلقان من تأخره، وعدم اتصاله بهما حتى هذه اللحظة، في مثل هذا الطقس السيء.

اللعنة على الهواتف المحمولة ، التي ينتهي شحنها في الأوقات الحاسمة.

تطلع نحوهما بحب ولهفة ..كانا منهمكين في مناقشة حامية ،وعلى وجه والدته ظهر ذعر مستتر غير معتاد.فاقتنصه القلق بمخالبه وبدد كل إحساس داخله بالبهجة ،ولا يعرف لماذا قرر أن ينصت لحديثهما دون أن يعلما ؟.

التصنت عادة قبيحة لا يقرها شرع ولا دين ،وأقرها الإنسان.

إن مقولة الضرورات تبيح المحظورات مطاطة جداً جداً ،والإنسان أحسن استغلالها ..حتى أصبح التصنت الذي هو التجسس حذراً مبالغاً فيه .

لم يكن بالطبع يريد أن يتجسس عليهما ،ولكنه ذلك الشعور المخيف بأن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام أقلقه.

شيء سيحرصان على إخفائه عنه ،وربما عن الجميع .

شيء ما يخصه لأن اسمه ذكر أكثر من مرة وسط الحوار.

شعور غامض غير مطمئن يعصف به، بل ويتوافق مع العاصفة التي تهدر بالخارج .

البرق والرعد يضيئان المكان ووجه والديه فيترسخ بداخله ذلك الإحساس بوجود كارثة في الأفق .

تنفس بعمق وترك لأذنيه مهمة نقل صوتهما إليه .. لم يكن الصوت واضحاً للوهلة الأولى فغير مكانه .

مادا سيكون موقفه لو هبطت زوجته من الطابق العلوي، ورأته يتصنت على والديه ؟.

حمد الله أن صغاره لم يعتادا السهر ،فأي قدوة سيكونها في هذه اللحظة؟ .

الاف من الأفكار تتلاطم في عقله وتتنازع بداخله ..فكرة سوداء تنمو ،وتمد جذورها لتحتوي كيانه ،هل عادت زوجته لمضايقتهم من جديد ..هل أساءت إليهم بشيء لا يعرفه ؟.

حقيقة هو لا يعرف كيف هام قلبه بتلك الإنسانة البغيضة يوماً ..إن الجمال خادع دون شك ..الغريب أنه تحملها طوال هذه السنوات .

إن الأطفال قيد بغيض حقاً ،وهي تحنو عليهم ،وكأن لها قلبين .

هذه المرة أقسم أنها لو كانت قد أساءت لهم ولو عن غير قصد. ولو بمجرد نظرة ، فإن الطلاق سيكون أهون الحلول. وليرأف الله بالأطفال.

قطع أفكاره صوت والدته المنفطر، وهي تسأل زوجها بأسى :

- ما الذي جعلك تتذكر هذا الأمر مرة أخرى يا عبد الحميد ، لقد مرت عقود على حدوثه ..ألم تنس بعد ؟.

نظر نحوها زوجها بوجه تطفح المرارة منه، وقال بصوت متهدج :

- وهل نسيته ..هل نسيته يا رويدا؟ .

- بالطبع لم أنسه ولكن ..

قاطعها في لوعة :

- ولكن ماذا ؟..لا يوجد لكن في هذا الأمر ..لقد اشتقت إليه ..إنه أول ابن لي .

ربتت على كفه وقالت :

هو ابني أيضاً ..ولكن الله لم يشأ أن يستمر معنا ..هو في مكان أرحب وافضل ..هون عليك يا زوجي العزيز .أعرف جيداً أن ذكراه السنوية قد اقتربت .. لا تعذبه في قبره ..ادع له بالرحمة .

توتر والده وظهر أن الدموع ستهطل من عينيه ، وقال بغضب ودمعة حارقة تتسلل إلى وجنتيه :

- عن أي قبر تتحدثين يارويدا عن أي قبر؟.

عاض الدم من وجهها وصمتت، ومعها خفق قلب آسر، وتصاعدت الأدخنة إلى عقله، ومعها طوفان هادر من التساؤلات.

عن أي ابن يتحدثون ؟

إنه ابنهم الوحيد ..ابنهم الذي لم يرزقا غيره .

***

السماء تموج بغضب عاتي، والبرق يضيء كل شيء، والرعد يكاد يصم الاذان . ولكنه كان في عالماً آخر من الحيرة والغموض ..

- الشتاء يحمل أسراراً مخيفة أيضاً .

لم يجد آسر إجابة شافية لتساؤلاته . فعاد ينصت للحوار من جديد ، وكان صوت والده المتهدج يعصف باتزانه :

- إن أكثر ما يعذبني يا رويدا أننا أخفينا أمره ..أخفينا سره ..ولم نعد نذكر اسمه إلا همساً .

قبضت على كفيه بحنان ، في محاولة منها لبثه بعض هدوئها وقالت :

- هون عليك يا رفيق العمر.. ألم يكن هذا اقتراحك .

زفر في قوة وقال بصوت مهشم :

- هذا هو ما يحز في قلبي ..كنت أتمنى أن تبقى سيرته ..أن يوجد هناك من يذكره ..من يدعو له بعد موتنا .

طافت في عقل آسر كل الاحتمالات، وهو ينصت بغير فهم .ودعا الله ألا يوقظ الرعد والبرق زوجته وأبنائه، فيقطعون هذا الحوار.

سرح بعقله للحظات هُرس فيها عقله من التفكير.

ما السر خلف هذا الأخ الميت ؟.

كيف استطاعا إخفاء كل شيء عنه طوال هذه السنوات .فلم يخطيء أحدهم مرة ويأتي على ذكره ؟.

ما الخطأ الذي وقعا فيه و دعا لكل هذا الغموض ؟ .

لم يجد أي إجابة حقيقية فعاد لينصت من جديد، وكان الصوت هذه المرة هو صوت أمه :

- يا عبد الحميد إن الله رءوف بعباده .و قد مات طفلاً ..مات ولم يرتكب أي ذنب بعد ، لقد سبقنا إلى الجنة .وربما هو طريقنا إليها .

نظر نحوها زوجها بلوم وقال :

مات .. مات يا رويدا ..هل تخدعين نفسك ؟..لقد قتل ..قتل يارفيقة العمر .

ممصت رويدا في عنف. وسحبت يديها من بين كفيه .وقالت :

لا يا عبد الحميد ..لقد مات .. لقد انتهى أجله فاسترد الله وديعته .. استغفر الله إنها مشيئته .

رلت الكلمة على رأس آسر كالصاعقة .وأخذ يتمتم كالمجنون :

أخي قتل ..أخي الوحيد قتل .وقد أخفيا الأمر عني طوال هذه السنوات ..قتل ولم يأخذ أحد بثأره ..لايمكن أن يمضي الأمر على هذا المنوال بأي حال من الأحوال .

في هذه اللحظة تحفزت كل خلية في جسده وأخذ ينصت في تركيز. لابد ان يعلم قاتل أخيه ، إن ظهوره الآن سيفسد كل شيء .

الأم كانت مستمرة في التبرير ، وهو لا يعرف كيف تبرر أي أم مقتل ابنها هل تخفي خلف مظهرها الرقيق قلب من صخر؟.

عاد لينصت .

فقالت الأم بطريقتها العملية :

القتل يحتاج لإرادة وتخطيط ..ومن تسبب في الأمر لم يكن قد بلغ الحلم بعد .ولم يقصد ما حدث .. لا تعذب نفسك وتعذبني .

صمت الزوج للحظات طوال، ثم قال بعناد :

- احضري الصندوق من العلية يا رويدا ..احضريه.

اكفهر وجه رويدا ، وكأنها تحتضر، أو أنها ترى ملك الموت ، فعادت لتقبض على يد زوجها قبل أن تقول :

الرحمة يارب ..أرجوك يا عبد الحميد أرجوك أرجوك ..لا تجي الماضي من جديد ..أرجوك .

ظهر التصميم على وجه الزوج مما زاد وجهه هرماً ،وهو يقول بصرامة

- الصندوق يارويدا الصندوق ..لقد فاض شوقي إليه .

ضمته زوجته إلى صدرها في حنان . وقد تهدلت خصلة نافرة بيضاء من شعرها على وجهها لم تكلف نفسها عناء إزاحتها، وقالت :

- ألا تتذكر ماذا حدث عندما فتحت الصندوق آخر مرة ؟.

ألان صوته كطفل يستجدي أمه لمزيد من الحلوى وقال :

- أذكر.. أذكر..ولكني أعدك بأنها لن تتكرر.

ضمته أكثر، وقد غلبها التأثر، وهي تقول :

- وما الضامن يا عبد الحميد ولماذا الآن ؟..أقسم عليك بكل غالٍ أن تترك الماضي حبيس صندوقه .

ترقرق الدمع في أعين الزوج وقال :

لقد أخبرتك ألف مرة أني سامحته ..سامحته..ولن تمتد يدي إليه مرة أخرى .

نزلت الزوجة على ركبتيها ووجها في مواجهة زوجها، وقالت :

استحلفك بالله أن تكف عن إصرارك وأنت تترك العلية وشأنها .

لم يعرف أسر لماذا تحسس الندبة التي تزين ذراعه ،والناتجة عن كسر قديم مضاعف في هذه اللحظة . ولكنه نسي الأمر في لحظتها . بعد أن ثار فضوله أكثر.

لم تكن زوجته إذاً..إن كل هذا التوتر بسبب ميراث قديم من الحزن والأسى .. ميراث مخيف .

تصاعدت بداخله ثورة غضب، ظلت في حينها مكتومة، ولكنه أقسم ألا يغفر لهم ما أخفياه عنه ،وقرر أن يتحين الوقت ليقتحم العلية ليرى السر المخفي .

سر مقتل أخيه .

***

(٢)

ثلاثة أيام كاملة مضت كدهر ، وهو يحترق من الغضب والفضول

ثلاثة أيام لم تسمح له الفرصة لاقتحام العلية . العلية الموجودة في غرفة نوم والديه ،بداخل الغرفة التي لا تخلو إلا نادراً ،والتي تكشفها الصالة بكل وضوح .

ثلاثة أيام مرت وكأن آلة الوقت قد أصابها عطب ، فأصبحت عقاربها تتقدم خطوتين ثم تتراجع خطوة ، حتى أتت اليد التي رجتها فعادت لسيرتها الأولى ، ثم حانت الفرصة .

لقد قرر والداه الخروج إلى أحد تلك المشاوير التي لا يفصحان عنها

ربما خرجا لإحياء ذكرى ولدهم القتيل ، وهاهي زوجته قد انصرفت إلى عملها ، والأولاد حملهم الباص إلى المدرسة .

إنه اليوم الموعود إذن .

لقد خرج الأمر من إطار التصنت إلى إطار التجسس مع سبق الإصرار والترصد .

الآن سيقتحم العلية .. العلية التي ظلت مغلقة على الدوام، والتي لم تثر فضوله في يوم من الأيام .

اليوم ستكشف العلية له ولنا عن أخطر أسرارها .

عبر إلى داخل غرفة والديه ، وقلبه يخفق في عنف كطفل يسرق لأول مرة في حياته ، ولكن التردد لم تكن كلمة في قاموسه الآن ، بعد أن أحرقه الفضول .

القفل القديم لا يحتاج لأكثر من مفك ذو سن رفيع .

- تك تتك .. انفتح القفل الهزيل .

رائحة الغبار المكتومة ،والسنوات المنصرمة، والأسرار المعتقة تصدم أنفه ، ولكنه يتجاهل كل شيء ويواصل مهمته .

يصعد فوق السلم الخشبي المستند على الحائط درجة إضافية، ليواجه محتويات العلية .

عيناه تمسحان المكان في قلق..جثة فأر مجففة يزيحها من طريقه في اشمئزاز ،يتهيأ للصعود إليها ، فيتكيء بيديه على حافتها ،ثم يدفع جسده إلى الداخل . الطريق ليس خالياً تماماً..فهي أقرب لمخزن صغير مهجور.

فبالإضافة لجثة الفأر الجافة ،تحتوي العلية على أشياء كثيرة لا علاقة لها ببعضها .

حشية قديمة لابد وأن الفئران عبثت بها ..حقيبة سفر تهشم قفلها وتغير لون جلدها ..إناء نحاسي وإبريق ،بعض الملابس القديمة ، ثم جوال منتفخ من الخيش تهرأت خيوطه ،ولا شيء آخر غير عدة فرد لأحذية مختلفة بدون الفردة الأخرى .

دليل على حرص والدته على أشيائه،وبأنها لا تلقي بشيء أبداً يخصه حتى لو انتهت صلاحيته .

فتح الحقيبة القديمة فلم يجد بداخلها شيء إلا صرصور ميت جاف انقلب على ظهره .. لقد مات مختنقا دون شك .. حادث مؤسف آخر.

أغلق الحقيبة ثم تطلع للجوال المصنوع من الخيش ..لقد عرف أخيراً أن هدفه بداخل هذا الجوال .

سحبه متحاشياً أن يتمزق وهبط به إلى الغرفة وافترش الأرض ،فك الرباط المهترىء المحيط بعنق الجوال، ثم سحب الصندوق المعدني من داخله .

لم يكن صندوقا بالمعنى الحرفي للكلمة ..كان شكمجية كبيرة من التي تراها في مسلسلات ألف ليلة وليلة .شكمجية تحتاج لكنز خرافي كي يملأها .

عند هذه اللحظة دوي في عقله جرس، وخفق قلبه وتساءل في اضطراب :

- ترى ماذا يوجد بداخلها ؟.

لا يعرف آسر لماذا اعتراه خوف لحظي عندما هم بفتح الصندوق ، حتى أنه تردد في إتمام الأمر.

إن للصناديق هيبةً ..ولأسرار القتلى هيبةً مضاعفةً .ولكن أوان التراجع قد مضى منذ نوى أن يقتحم العلية .

أخذ نفساً عميقاً تشبع برائحة العفن والقدم الملتصقة بالجوال ،و تشجع وفتح الصندوق .ثم تراجع إلى الخلف وكل فزع الدنيا يظهر على وجهه .

وترددت في عقله جمله قالها والده في معرض حديثه ،ولم تلفت نظره حينها :

-(عن أي قبر تتحدثين ياروبدا ..عن أي قبر؟).

فالصندوق المفتوح أمامه ، كان يحتوي على عظام جافة تشكل هيكلاً عظمياً كاملاً ..هيكلاً عظمياً لطفل ،وبعض الصور وجريدة قديمة .

هاله ما ينظر إليه .

إنه يحمل بين يديه قبر أخيه !.

***

تحامل آسر على نفسه وأبعد العظام وعيناه تتجنبان ملامسة الجمجمة المهشمة، وبأطراف أصابعه أخرج الصور، والجريدة القديمة التي تآكلت أطرافها.

نحى الصندوق جانباً وبدأ بتصفح الصور، وعندما وجدها كلها له ،كاد ينحيها هي الأخرى جانباً ، لولا ملاحظة واحدة .

إنه ليس لديه شامه على خده الأيسر ، هو واثق من هذه النقطة على الأقل.

إذاً فالصور ليست لقطات مكررة له .

الصور له ولأخيه .

التوأم .

سحب الصورة الأكثر وضوحاً، ووضعها في حافظته واستمر في تفحص باقي الصور ،ثم عاد إلى الجريدة عندما لم يجد في الصور جديداً .

لا يعرف لماذا ترددت في هذه اللحظة جملة أمه :

- (القتل يحتاج لإرادة وتخطيط .ومن تسبب في الأمر لم يكن قد بلغ الحلم بعد ،ولم يقصد ما حدث .. لا تعذب نفسك وتعذبني معك).

ودار السؤال في عقله كشهاب عابث :

- هل أنا قاتل ؟! هل أنا من قتل أخيه ؟! ألهذا لم يدفنوه دفنة لائقة؟!..

دارت الدنيا برأسه للحظات . وبيد مرتجفه بدأ في تصفح الجريدة البالية . وعقله مازال يتساءل :

- لماذا لم يدفنوه دفنة لائقة ؟!..

وفي الصفحة قبل الأخيرة وجد الجواب .

إعلان صغير عن طفل مفقود .طفل يحمل وجهه مع شامة إضافية لم تقلل من وسامته .إعلان يحث ذوي الأيادي البيضاء والقلوب الرحيمة

على الاتصال برقم هاتف ثابت عند العثور على الطفل الغائب صاحب الصورة .

احترق عقل آسر من المفاجآت، وكاد يحطم رأسه من كثرة الغموض .

لقد اعتقد للحظة أنه القاتل .ثم جاءت الجريدة لتؤكد أن أخيه فُقد . وعاد ليراجع حوار والديه في عقله .فشعر أن عقله سيسيل بعد لحظات من داخل رأسه .

ماذا حدث حقا لأخيه ؟!..

وفي هذه اللحظة سمع الشهقة . وعندما استدار كان هناك زوجان من العيون يتطلعان نحوه في فزع .لقد عاد والداه .وقبضا عليه بالجرم المشهود .

لقد عاد والداه . بعد أن زادت حدة الأمطار. وجعلت الطريق جحيماً لا يمكن السير فيه .

عادا ليجداه قد اطلع على سرهم المحرم، فلم يمهلم أي وقت ليستفسرا عن كنه الأمر . وبكل خوف وغضب الدنيا سألهم :

- لماذا ؟!

وجاءت إجابة أمه المتسرعة لتحسم الأمر:

- لقد أخفينا عنك كل شيء .. لحرصنا عليك ..لأننا أردنا لك أن تنشأ نشأة طبيعية ككل الأطفال في سنك حينها .. ردنا ألا تحمل الذنب على عاتقيك طوال عمرك . فيفسد عليك حياتك . حملنا السر بقلوبنا حتى انفطرت ودفناه هناك في العلية حتى صار عظاماً .

نظر نحوهم بوجه يحمل ملامح عاتيه من الصدمة، بعد الاعتراف السريع وقال :

- ولكني لا أفهم أي شيء .. هل قتل أم اختطف ؟!..

دوى صوت الأب صارماً مختلطاً بمشاعر هادرة وقال :

- لقد مات .. لم يقتل ..لقد دفعته أنت بالخطأ من فوق الدرج أثناء لهوكما معاً ..فسقط مهشماً ..أنت لم تكن تدرك ماحدث ولم تقصده .

حملت عين الأم نظرة امتنان للأب ، وعندما همت بالحديث ، قاطعها آسر بقلب منفطر:

- وإعلان الجريدة .

قال الأب بصوت مهتز:

- مجرد إعلان زائف لحبك القصة .

قاطعه آسر في غلظة .

- ولماذا لم تدفناه دفنة لائقة ؟!

صوت الأم المنفطر:

- لأن الأمر لن يكون سراً وقتها ..دفناه في العلية ،ومعه السر..وكله من أجلك

- إذاً أنا قاتل ..قاتل .

قالها آسر وأخذ يرطم رأسه في الحائط ،حتى فقد الوعي .

وعندما سقط ضمته أمه إلى صدرها ، وهي تكتم الدماء المنفجرة من رأسه بغطاء رأسها ،وهي تبكي كما لم تبك من قبل .

(٣)

عندما أفاق آسر وجد نفسه في فراشه ، وهناك ضمادة فوق رأسه ، وبجواره والداه يبتسمان يحمدان الله على سلامته .وتساءل لأول وهلة عن حقيقة ما حدث . فأخبره والداه أنه سقط من فوق السلم وأصيب إصابة طفيفه . وفي اللحظة التالية برزت أمام عينيه كل أحداث الليلة السابقة .

فانطلق يسألهم ألف سؤال .وعلى وجوههم ارتسم تعبير مستنكر .جعله هو نفسه يتساءل عن حقيقة الأمر.

لقد أنكروالداه كل شيء .

انتفض من مكانه وطالبهم بمفتاح العلية . وعندما حصل عليه ، اقتحمها ولم يترك فيها جزءاً لم يبحث فيه .

كل شيء في مكانه .

الحقيبة. الملابس. الإبريق والإناء ..جثة الفأر المحنطة وجثة الصرصار..ولكن لا أثر للصندوق أو الجوال .

هبط كإعصارغاضب يستجوبهما .وعندما دخلت زوجته .وطفلاه الهلعان من صوته المرتفع توقف .

رأي في عين والدته نظرة ضراعة تحثه على الصمت فصمت وقلبه يحترق من الغضب ، وجعل اليوم يمضي دون مزيد من الأسئلة .

وعندما غادر الجميع غرفته .عادت صورة أخيه تحتل كامل كيانه وبخطوات وئيدة ترك الفراش.وتوجه صوب الدولاب وأخرج محفظته .ومن قلبها أخرج الصورة التي تضمهما معاً. ثم أخذ يبكي .

مازال والداه يحاولان حمايته .

لقد عانا طوال عمرهما لحفظ السر.

السر الذي كان يعرف جيداً أنه سيدمره .

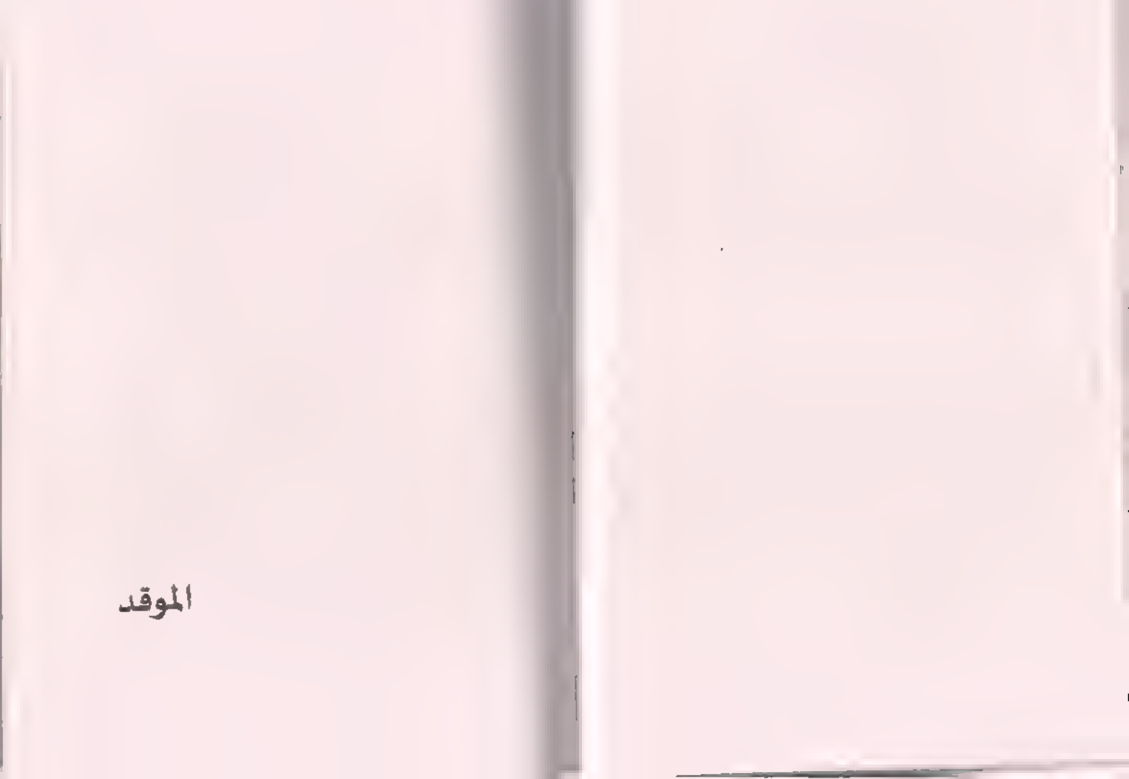
عاد لفراشه ومن فوق الكومود حمل صورة والديه .وضمها لصدره في قوة. ثم قال بصوت باكٍ :

- نعم كل ما حدث كان وهماً .

وفي المساء وعندما نام الجميع .وضع الصورة في مظروف خاص .وتسلل برفق إلى غرفة والديه الغارقين في النوم .

أعاد الصورة إلى مكانها القديم بقلب العلية. وغادر الغرفة وبداخله كتلة من المشاعر غير المحددة .

فلم يلمح أباه الذي عطت شفتيه ابتسامة لحظية ..قبل أن تفارقها الحياة _ بعد أن اطمئن إلى أن السر قد عاد إلى العلية .



الموقد

(١)

تقول عبير باكيةً:

- المرأة تتحمل أي إهانة في الدنيا إلا أن تكون وحيدة .
- الوحدة بالنسبة للمرأة هي حطب جهنم الأرضي .

***

الموقد لا يعمل ،وهي كارثة كونية لا تقدرها إلا الأنثى .

إن زوجها على وشك العودة إلى المنزل ، وستثور ثائرته لو وجد الطعام غير معد ، وسيكون له كل حق في التنكيل بها ، فهو يعمل طوال الوقت من أجلهم ،ولا يتأفف أبداً من مشاق العمل.

كما أنه هو من تغاضى عن إعاقتها ومستواها التعليمي المتدني، وقبل بها بعد أن يئست من الحصول على زوج حقيقي .

وهو ليس دائم الثورة ، ويحبها ويحنو عليها ، ولكنه عند الطعام لا يرى أمام عينيه .. يكون شيطاناً رجيماً .

ماذا ستفعل الآن ؟!

لا توجد جارة لديها إسطوانة غاز تخرجها من ورطتها ،وهو لم يترك لها أي نقود فتحضر كيروسين للموقد القديم .

ولو توفر الكيروسين فالموقد تالف . وبالطبع فهي لم تسمع بعد عن الموقد الذي يعمل بالكهرباء . كما أن زوجها على وشك العودة من عمله المجهد.

ماذا تفعل الآن ؟.

وقفت عبير بقلب المطبخ باكيةً تلعن حظها، وتتهيأ ليومٍ أسودٍ من تلك الأيام التي لا تفضلها ،عندما صدم أذنها ذلك الصوت العميق المختلط بالفحيح :

أستطيع أن أساعدك ..على أن تدفعي الثمن لاحقا .

صدمتها بعنف فكرة أن هناك غريباً معها في المنزل . وأن من يتحدث معها وينشد مساعدتها ليس زوجها أو أحد أطفالها؛ بل هو متسلل غامض يعرف عمق مشكلتها وعمق ما تفكر فيه .

إن الأمر ليس طبيعياً أبداً .

كادت عبير أن تفقد الوعي كعادتها كلما قابلت موقفاً يفوق مقدار استيعابها وإدراكها -لكنها تماسكت .

دارت حولها بحثاً عن المتسلل مصدر الصوت وقد تسلحت بسكين مطبخ مشحوذ .

لسوء حظ المتسلل أنها قد شحذت جميع السكاكين منذ فترة وجيزة . لذا فهي لن تحتاج لمجهودٍ خاصٍ لغرسها في قلبه .

سحبت ساقيها لمعاقة حلمها وتحركت بتلك الطريقة المعتادة ،، يصاب بعرج في قدميه لتمسح الشقة بالكامل ، فكان منظرها يثير الشفقة بشدة .

كل الغرف خالية ..

لا شيء بداخل الخزانة أو تحت الفراش أو خلف الستائر.

لم يكن الصوت آتياً من التلفاز فهو مغلق .

نحن في تلك الأيام [illegible] التي لم يكن ليبث فيها يتحاور [illegible] الليل إلا بمعجزة والراديو القديم الذي ورثه زوجها عن والده يحتاج لمعجزة أخرى ليعود إلى الحياة .

عادت عبير إلى المطبخ بسحنة كئيبة ، وهماً جديداً فوق همومها الأخرى . لابد أن تجد حلاً لإطعام زوجها ، لا وقت الآن لرفاهية الوهم والخيال .

ان زوجها حقيقة واقعة .

حقيقة تقذف كلمات أشد من الضرب والذبح

فكرت في صفيحة السردين المخلل، والتي تقوم بإعداده منزلياً، ولكن وقتها لم يحن بعد ، كما أن زوجها لا تقل له على هذا النوع من الأطعمة .

،فرت في يأس، ثم قبضت على إسطوانة الغاز وقامت بقلبها وهزها للمرة الألف .

إن هذه الحركة الأسطورية تنجح كثيراً في إقناع الموقد بالعمل .

قربت عود الثقاب من العين الصغرى للموقد وفتحت صمام الغاز، ولكن لاشيء ..الموقد أمامها كجثة فرغت منها الحياة .

ألقت عود الثقاب قبل أن يحرق أناملها، وعادت لدموعها وقد فاضت مشاعرها، حتى أنها فكرت لوهلة في الانتحار،قبل أن تهز رأسها وتستعيذ بالله من همسات الشياطين .

مرت لحظات ثقيلة عليها، وهي تقف أمام الموقد كتمثال من شمع ،وكأنها تنتظر معجزة ما ،عندما دوى الصوت مرة أخرى ، فكادت من المفاجأة أن تسقط على ظهرها، ولكنها استعانت بحوض الغسيل لتظل واقفةً على قدميها ، وهي تتلفت حولها في ذعر متصاعد .

- أستطيع أن أساعدك ..على أن تدفعي الثمن لاحقاً.

- من أين يأتي هذا الصوت المشئوم ؟.

تكاد تفقد صوابها ..وعندما تكرر الصوت تجمدت عبير في مكانها مرةً أخرى وقد اجتاحها رعب عاتٍ، وأخذت تردد بصوت باكٍ ، وهي تطلع صوب الموقد في هلع :

- يا إلهي هل يتحدث الموقد ؟! الصوت آتٍ من جهته .

لم تكن واهمةً هذه المرة ، لقد حددت مصدر الصوت بدقة ، بالفعل كان موقد الغاز هو من يحادثها ،الموقد الذي اشتعلت شعلته الصغيرة كشمعة واهنةٍ قبل أن تنطفئ لتشتعل شعلةً أخرى أكبر.

نار الموقد تتراقص أمام عينيها الهلعتين على الرغم من خلو إسطوانة الغاز منه . بالطبع لا مجال الآن للتفكير في إنضاج وجبة للروح فوق هذه النار المشتعلة . من يفكر في أمر كهذا لابد وأنه فقد عقله أو في طريقه لذلك .

- أستطيع أن أساعدك ..على أن تدفعي الثمن لاحقاً.

شهقت عبير في رعب :

- الأمر حقيقي إذاً .. فإما أن الموقد صارت له حياة" خاصة" وهو تفكير يجافي أي منطق ، أو أن بسم الله الرحمن الرحيم ، الجان قد مسوا الموقد .

الجان ذكروا في القرآن، وقد سكنوا المصابيح والخواتم والفوانيس والقماقم النحاسية ، فلما لا يسكنوا المواقد ؟!.

لقد رأت مسلسل أطفال قديم ..ظهرت فيه الجنية لتمنح فتاة لا تذكر اسمها ملابس وحلي وتسريحةً رائعةً لتحضر حفل الأمير ،وفي النهاية تزوجت من الأمير بعد أن كادت لزوجة أبيها وابنتها القبيحتين .

في مسلسل الأطفال تحول القرع العسلي إلى عربة فاخرة تجرها الفئران، تلك الفئران التي تحولت بدورها إلى جياد رائعة الشكل ،

والحوذي لا تذكر أي حيوان كان أو أي نبات ولكن كل شيء انتهى في الثانية عشر ، وعادت الفتاة شحاذة بعد أن نسيت حذائها ،والغريب أن حذاءها لم يعد لهيئته الأولى كباقي الأشياء وكأنه يتمتع بنوع مختلف من السحر.

إنها تلك الملاحظات التي تفسد القصص دائما .

إنها الظهيرة الآن ،والثانية عشر ليلاً تفصلها عنها ساعات وساعات من الخوف .

رنت بعينيها صوب الموقد بخوف وهي تفكر:

إن موقدها لم يأت من هذا العالم المخيف دون شك ،لقد اشترته مع زوجها من شركة بيع المصنوعات بالتقسيط. لقد خرج من المصنع إلى المعرض إلى شقتها ، لا يمكن أن يكون قد مر على ساحر أصابه بلعنة، أو مر على قبيلة للجن فارتاح قلب أحد مردتها له فسكنه .

الفتاة صاحبة الحذاء في القصة السابقة لم يظهر عليها الرعب ، لقد نظرت للأمر على كونه فرصةً فاستغلتها،ربما كانت الساحرات في عصرها طيباتٍ ومعتاداتٍ ، ولكنها خائفة وهذه الأشياء ليست معتادةً أبداً في عصرنا .

غادرت عبير الغرفة مسرعةً إلى الصالة وهي ترتجف .

زوجها في العمل، وأطفالها الثلاثة في المدرسة .

هي وحيدة إذ،

وعندما تشعر عبير بالخوف او الوحدة تبكي

- يا إلهي ..الموقد يتحدث .!!يتحدث .!

وانهمرت دموعها

***

عندما عاد زوجها وجدها فاقدةً لوعي متكورةً على نفسها في وضع الجنين .. لم يأبه للطعام أو للجوع فهو يحبها حقاً.

لم يتزوجها شفقة بها: بل تزوجها عن حبٍ جارفٍ.

إنها تمتلك أرق روحٍ لامست روحه في الوجود . وتلك الإعاقة التي كان سبباً واضحاً لمعارضة أمه لزواجه بها لم تفقدها في عينيه شيئاً من جمالها . بل منحته درجةً من الإثارة لا يعرف لها سبباً .

حملها في جزءٍ صوب الفراش وقلبه يخفق من الروع . حاول إنعاشها وعندما فشل..استدعى جارهم الذي يعمل ممرضاً في المستشفى الحكومي في المركز القريب .والذي عزا الأمر للإرهاق فمؤشراتها الحيوية في أفضل حالتها .

مرت عدة دقائق وعبير لا تستجيب دقائق كاد قلب زوجها فيها أن يتوقف من اللوعة عليها .

وعندما استفاقت ..حمد الله أن الأولاد لم يعودوا من المدرسة بعد . ليشاهدوا أمهم في هذه الحالة البائسة .

كان وجه عبير شاحباً، وصوتها مختنقاً.

لم تستطع أن تتحدث عن الأمر مع زوجها ..يكفي إعاقة قدمها لا يمكن أن يضاف لها الجنون .

الموقد يتحدث ..

إن لم يكن هذا الجنون ..فما هو الجنون ؟!

لابد وأنها كانت تحلم .. بالفعل هي كانت تحلم ..

هي ليست مقتنعة بموضوع الحلم .ولكنه بالنسبة لها تفسير مريح . مريح إلى حد ما .إلى حد أنها ظلت تقنع به نفسها طوال الساعات التي تفصلها عن الليل .

أتى الليل فجافاها النوم، وتهيأت في عقلها آلاف الأفكار السوداء .

لا يمكن أن تنام عبير براحة وذلك الشيء القميء تحت سقف منزلها . -

لا يمكن لأنثى أن تنام، وشيء ما يشعل فضولها، خاصة لو كان بداخل عرينها .. المطبخ .

موقد يتحدث ..يا له من جنون .

ثقافتها لم تكن تهيئها لاستيعاب الأمر أو مواجهته .فأقرت عن عدم اقتناع أن الأمر كله كان وهماً ..وهم صنعه الإرهاق كما قرر جارهم الممرض .

الفجر يقترب . وشعور غير مريح يجتاحها.

لا يمكن أن تترك الأمر يمضي هكذا ..لابد من إجراء حاسم ..لابد من إجلاء هذا الغموض .

فلا يمكن أن تتحول لمجذوبة أخرى تمضي حياتها هائمةً في الطرقات بثياب ممزقةٍ وشعرٍ منتفشٍ . كما تفعل تلك المجذوبة "قمر" التي يعرفها الحي بالكامل .. لن تسمح للجنون بالسيطرة عليها .

الوضع كله غير مؤكد ولا يمكن الإمساك به، ولكن الشيء الوحيد الواضح والمؤكد، أنه لن يمكنها النوم قبل أن تتأكد من حقيقة هذا الشيء القابع تحت سقف منزلها .

تسللت من جوار زوجها في هدوء، فهي قد أقلقته اليوم ما يكفي لعدة أشهر. لأول مرة تكون سعيدة بسماع صوت غطيطه الذي لم يعد منفراً .

أن هذا الغطيط يخبرها أنه هنا،وأبداً من أجلها، ومن أجل حمايتها والذود عنها .

لمثل هذه اللحظات القاهرة تتزوج النساء .

رمقته بنظرة حانية ، قبل أن تحجل على قدميها، وتتوجه صوب باب الغرفة لتفتحه بهدوء .

خرجت إلى الصالة المظلمة في تردد وقلبها يعزف موسيقى الرعب،وعرق بارد يغمر جبهتها .

إنها خائفة بالفعل ..بل مرعوبة .. خائفة من الموقد .

فما تعرفه عن المواقد هو فقط ما تعرفه أي أنثى أخرى ..أن غازها ينتهي في أوقات غير مناسبة فيتسبب في مشكلة خاصة حين تكون هناك عزومة هامة، أو ينفجر فيقضي على أسرة هانئة، أو يتسرب منه الغاز فيقتل عروسين في ليلة زفافهم ..ولكن أن يتحدث ..

هذا ما لا تفهمه أبداً ولن تفهمه .

الهدوء يخيم على المنزل .. باب المطبخ المفتوح يكشف لها المكان بالكامل

لا شيء غير طبيعي ..

حتى الموقد لا يبدو غريباً بعيونه الأربعة الخامدة .لابد وأن ما حدث وهم بالفعل .. قلبها برغم كل شيء لا يكف عن الضجيج ..

ترهف أذانها لتسمع غطيط زوجها المنتظم .. تستجدي منه الأمن والأمان، ثم تتحرك بأقدام من هلام صوب المطبخ .

تمد يدها لمفتاح الإضاءة ..تضغط عليه بقوة فلا يستجيب .

مازال الظلام مستقراً في مكانه ولم تكنسه مكانس الضوء .. لعنت المصباح بصوت مرتجف ..إنه أسوأ وقت يتخلى عنها فيه .

دلفت إلى المطبخ ووقفت أمام الموقد تتفحص كل شيء .

إسطوانة الغاز غير موجودة في مكانها المعتاد.

لابد وأن زوجها قد فكها من مكانها ومنحها لمن يبدلها بأخرى ممتلئة .

إنه زوج رائع برغم قلقه وانشغاله بها، أكتشف خلو الإسطوانة من الغاز، وقام بما يجب عليه صوب الموقد، وبقايا الشطائر المتناثرة فوق رخامة المطبخ توحي بأنه لم يترك الصغار دون طعام

إن خصاله حد تهون عليها حدة طباعه، فهو طيب القلب حنون لولا لحظات انفلات الأعصاب.

اقتربت من الموقد أكثر. وهي تتمنى بداخلها ألا يحدث شيء مرعب

بل شيء على ما يرام

شعلات الموقد خامدة كما هي منذ ساعات،والهدوء لا يقطعه إلا غطيط زوجها

ترى هل يزعج غطيطه الجيران ؟!

مدت يدها لتلامس الموقد..برودة المعدن تتسلل إلى يدها إنه طبيعي تماماً

هل يعني هذا أنها كانت تتوهم بالفعل ؟.

تنفست الصعداء وهمت بمغادرة المطبخ ,وعلى وجهها ابتسامة كبيرة، فمازال الجن في مملكته ولم يطغ على مملكتها.

أي شيء أخر غير الجن يمكن مواجهته وعلاجه.

خطت خارجة من المطبخ عندما انطفأت كل أنوار الشقة، وصك أذنيها صوت باب الفرن السفلي يفتح بصرير مخيف.

وعندما استدارت وكل خلية في جسدها ترتجف، رأت النيران تموج بداخل الفرن عبر بابه المفتوح.

نيران تشكل وجه شيطاني مخيف.

فاق الأمر إدراكها ..فأطلقت صرخة مريعة أيقظت الحي كله، ثم سقطت أرضاً. وقبل أن تفقد الوعي سمعت الصوت المختلط بالفحيح:

- أنا فقط أريد مساعدتك.

وغلف الظلام كل شيء.

(٢)

- الموقد يحدثني يا إيمان أقسم لك ، بل وتشتعل نيرانه دون غاز أو ثقاب .

نظرت إيمان نحوها بدهشة وهزت رأسها، وكأنها لا تعرف ماذا تقول قبل أن تردد بصوت منكر:

- عبير لا يمكن أن يكون ما ذكرتيه حقيقيا ..أنا أعرف أنك أعقل من تتحدثي عن هذه الأمور .

زفرت عبير في ضيق وقالت :

- أنت ابنة خالتي ..ورفيقة طفولتي ..هل سبق وكذبت عليك في شيء ؟.

ظهر التردد في عين إيمان، وهي تقول :

- ولكن يا عبير هذا أمر لا يمكن أن يصدقه عقل طبيعي .

ضاقت عينا عبير في خبث، ثم قالت :

- إذا كنت تشكين، فلما لا تخوضين التجربة معي ؟!..

اتسعت عينا إيمان في خوف، ولكن نظرات عبير الساخرة جعلتها تقبل التحدي :

- لا بأس ولكن في الغد ..سأرتب أموري مع أمي وأخبر خطيبي وأعود لك ، ولكن في البداية أخبريني ..هل أخبرت زوجك بهذا الهراء عن الموقد؟!..

حركت عبير إصبعها أمام عينها ملوحة لحنان، وقالت بصوت يحمل بعض الخوف :

لا تتخذي مواقف مسبقة ..فقط انتظري لتري و..

قاطعتها حنان قائلة :

وزوجك ؟..

لم أخبره بالطبع ..فقط ادعيت رؤيتي لفأر .وأثناء هروبي تعثرت وسقطت ففقدت الوعي .

بدا على إيمان أن الوضع قد بدأ يقلقها، فقالت :

إمم .. كذبة موفقة، ولكن أرجو ألا يكون الأمر كله دعابة من دعاباتك السخيفة.

أطلقت عبير زفيراً عصبياً قبل أن تقول :

صدقيني يا إيمان الموقد يتحدث .

صدقيني يا عبير لن أصدق حتى أراه .

- إلى الغد إذاً.

- إلى الغد .

***

عندما غادرت إيمان في المساء التالي جلست عبير في فراشها مشوشه تسترجع احداث اليوم المنصرم ..

كان يوماً عادياً .. بل أكثر من عادي ..

الموقد يتصرف كموقد عادي لعين فرغت إسطوانته. لا نيران تشتعل من تلقاء نفسها ، ولا فحيح غاضب ، ولا عروض بالمساعدة .

الموقف كله كان محرجاً لها .

لم تستطع أن تقدم تبريرات مقنعة لابنة خالتها.فقط أمضيا فترة ما بعد العصر في النميمة، وتناول الشطائر التي أحضرها زوجها .

حدث واحد استثنائي قد حدث في ذلك اليوم الممل؛ وهو أنها في المرة الوحيدة التي دخلت فيها المطبخ وحدها ..سمعت صوت ضحكة ساخرةً وخيل إليها أن الموقد يهتز من فرط النشوة .

في اليوم التالي قام زوجها بتبديل إسطوانة الغاز، بل وقام بصنع كوب من الشاي على الموقد دون أي أحداث غير طبيعية . وهي تراقبه في وجل .

بدا وكأن الموقد يسخر منها.. إنه لن يفصح عن حقيقته لأحد غيرها .. هكذا لم يكن أحد يرى الجني غير مالك المصباح .

في حضور زوجها طهت عبير وجبة كاملة . ولكنها لم تلمس الموقد بيدها مباشرة ولو مرة واحدة .لقد صارت تتعامل معه كمريض بالطاعون ..كما أنها استخدمت كل حيلها الأنثوية ليبقى زوجها بالجوار

ولكن الأزواج سريعو الملل ولا ينصتون لهستريا زوجاتهم باهتمام حقيقي

وعندما غاب عن المطبخ بدأ الهول .

النيران في البداية كانت متوازنة . شعلات الموقد تقوم بعملها المعتاد دون زيادة او نقصان ..لا بوادر لأي حدث غير طبيعي في الأفق .. الطعام ينضج ورائحته الشهية تعبق المطبخ، وتتسلل منه إلى أنحاء الشقة ومع اقتراب النضج انهمكت في إعداد الطعام ونسيت كل شيء. عندما سمعت ذلك الفحيح الشيطاني

ذلك الفحيح المميز للنيران وهي تستمتع بالتهام شيء آخر في جشع.

فحيح وحشي متصاعد .وسط رقصة الزهرة البرتقالية الغاضبة .

وفي اللحظة التالية بدأت تشم تلك الرائحة الكريهة لاحتراق الطعام بعد أن حاصرت النيران آنية الطهي .

اتسعت عيناها في هلع من هول ما يحدث أمامها. لقد تحول المكان لجحيم في لحظات وارتفعت حرارة كل شيء .

رائحة الشياط تزكم أنفها .والنار تتمدد كثعبان غاضب نحوها .

كاد قلبها يتوقف .وهي لا تستطيع تحديد حقيقة الوهم والخيال ..إن هذا الوغد يجيد انتقاء لحظات ظهوره . ويجيد العبث بها .

هذه المرة لم تصرخ، ولم تفقد الوعي. فقط سقطت على ركبتاها، وهي تبكي بصوت مكسور ومنهزم .

النيران تقترب منها ولا تأبه لموقفها

الدخان يعبق رئتيها ويغلف كل شيء حولها . وهي كالتمثال المعدني لا تتحرك.

كانت تريد للأمر أن ينتهي بأي شكل حتى ولو كان بالموت .

كل حواسها تجمدت، فلم تستمع لصوت صراخ أطفالها ولا لهفة زوجها بعد أن جذبتهم رائحة الطعام المحترق .ثم دار كل شيء أمام عيناها الذاهلتين بالتصوير البطيء .

زوجها يغمرها بالماء ..

يجرها من يديها جراً خارج المطبخ ، ثم إلى خارج المنزل بعد أن نهر أولاده ليدفعهم أمامه ..

عودة الزوج مع الجيران ليكافح النيران المستعرة في كل مكان بالمطبخ في همة وشجاعة يحسد عليها

النيران التي انطفأت ببساطة مذهلة ،وكأنها لم تكن مستعرة منذ لحظات .

***

ملاحظات الزوج والجيران .

النيران لم تكن طبيعية، فلا يمكن أن ينجم هذه الكمية من النيران من موقد مشتعل وطعام محترق .

النيران لم تتجاوز حدود الموقد وتلاشت من تلقاء نفسها .. فالمياه التي غمرت بها لم تكن كافية .

الشيء المحير كان صوت الفحيح الغاضب .

الخلاصة أن هناك شيئاً مريباً في هذه الشقة .

***

إن زوجتك حامل

هذا ما قاله جارهم الممرض، وكان هذا الخبر شماعة جيدة لتعلق عليها كل الأحداث المريبة السابقة

فقدان الوعي ..الهستيريا .. نسيان الطعام حتى الاحتراق . وكل الأمور المريبة الأخرى ..فقط عبير هي من تذكرت ..لقد أدركت أخيراً حقيقة ما يحدث .. بعد أن زالت غشاوة التعويذة .

(مع الطفل الرابع ستدفعين الثمن) .

هذا هو ما أخبرها به ذلك المشعوذ الذي لجأت إليه من أجل مساعدتها على الزواج ، فبرغم جمال وجهها كانت إعاقتها تشوه شكلها، وتمنع الشباب من الاقتران بها .

استمعت لنصيحة جارتها بالذهاب للشيخ كمال .

دفعت له مبلغاً فلكياً .

وأطاعته في كل ما طلب منها برغم فداحته ، وعندما تزوجت قررت أن تنسى كل شيء، وساعدها الشيخ كمال في أن تنسى كل شيء حتى تحيا حياة طبيعية، وكأن النسيان سيجعل الأمور تمضي على خير.

لم يكن تعلق زوجها بها طبيعيا إذن ..وبرغم ذلك أحبت هذا التعلق .

***

عندما عاد زوجها وجدها فاقدة للوعي متكورة على نفسها في وضع الجنين .. لم يأبه للطعام أو للجوع فهو يحبها حقاً..لم يتزوجها شفقة بها بل تزوجها عن حب، إنها تمتلك أرق روح لامست روحه في الوجود. وتلك الإعاقة لم تفقدها شيء من جمالها ، بل هي تمنحه درجة من الإثارة لا يعرف لها سبباً .

لم تكن تعرف أن السنوات ستمضي بهذه السرعة ..لذا لم تفكر في الثمن .. ربما لم تكن تدكر أن لكل شيء ثمن ..حتى السعادة .. وثمن فادح جداً.

الآن عليها أن تدفع الثمن .

الثمن الذي لم تراه وقتها فادحاً .. فالديون المؤجلة في حكم المعدومة .

عليها الآن أن تتزوج من ذلك الجني الذي ساعدها في العثور على زوج .

عليها أن تهب نفسها له ليلة واحدة .. ليلة واحدة فقط .

كان هذا هو الشرط الوحيد لإتمام الأمر.

إنها لا تمانع لو كانت حياتها ستصير طبيعية بعد ذلك ،ولكن السؤال هنا .

كيف ستهب نفسها لموقد ..كيف ؟!..



زهرة صفراء

(١)

اللون الأصفر

هو لون الشحوب ..

ولون المرض ..

ورمز الفراق في الأزهار..

وكان لون صغيرها ..

***

وحيدة هي ..كقمر غريب في السماء ..وكزهرة أخيرة في بستان قبل موسم الجفاف، و كلؤلؤة منسية بقلب محارة . ورغم ذلك يحسدها الجميع لأسباب لا تراها جديرة حتى بالتفكير..

فما قيمة المال مقابل حرمانها من الحنان والعطف اللذين تشعر بهما بين دراعي زوجها ؟!..وما قيمة تلك الملابس التي لا حصر لها ،والتي تتكدس في دولابها عاماً بعد عام من كافة الماركات والأشكال دون أن يراها زوجها ترتديها وتختال بها أمامه في غنج ودلال ؟..

ما فائدة ذلك الحساب المصرفي الذي أصبح يتضخم حتى طغى علي حياتها نفسها ..دون أن ينفقا منه معاً ويحققان أحلامهما البسيطة؟!..

ما فائدة تلك السيارة الصفراء اللون التي اختارتها لعشقها لهذا اللون دون أن يكون قائدها هو زوجها ؟..

وحيدة هي كعملة انتهي تداولها ،وأصبحت مجرد زينه فلا أحد يهتم بقيمتها وتقتحمها العين اقتحاماً . ورغم أن الوحدة اختيارها إلا أنها تؤمن بأنه اختيار فرض عليها فرضاً .

لقد سافرت مع زوجها لأحدى دول الخليج بعد زواجها مباشرة ،مع أحلام الجنة التي ستجمعهم، والجزيرة النائية التي ستضم حبهم المتأجج .

تنازلت في البداية عن كل الملابس الملونة وارتدت الزى الأسود .

من اليوم لن تستطيع الخروج بفستانها الأصفر المحتشم ولن تحمل تلك الحقيبة الصفراء ذات النقوش الفرعونية الجميلة المفضلة لديها التي تكمل أناقة الفستان، ولكن لا بأس زوجها يستحق أكثر من مجرد لوناً مفضلاً حتى ولو كان اللون هو الأصفر الدافيء.

قبل أن تعبر المنطقة الجمركية نظرت لشابة مترعة بالحيوية ترتدي فستاناً أصفراً وودعت لونها المفضل . ثم استقلت الطائرة وسط موجة ضخمة من السواد الذي يغلف النساء ،واللون الأبيض الذي يكسو الرجال .

حتى أنها تساءلت عن كنه حرمة الألوان ..هل باقي الألوان حرام فعلا؟!

قرأت ذات مرة عن حرمة اللون الأحمر الخالص للرجال دون النساء . ولكنها تعتقد أن باقي الألوان لا إثم عليها ..

ما ذنب اللون الأصفر كي لا ترتديه مجدداً ؟.

سلمت أمرها لله ثم صعدت الطائرة. تجاهلت ذلك الانقباض الذي شعرت به يغتال قلبها ، وعانت من الضغط الكبير أثناء الصعود والهبوط ،ولكنها قالت إن زوجها يستحق.

تجاهلت نظرات المضيف المستنكرة لأنها حاسرة الوجه . وتعرف هذا - أيضا - بأنه لا مشكلة فيه صحيح أن ملامحها جميلة ولكنها لا تغش ، ولكن لا بأس زوجها يستحق .

مضت ساعات الرحلة وزوجها بجوارها يغط في النوم .اشفقت عليه لإرهاقه ،وأشفقت علي نفسها لجلوسها وحيدة أكثر من ساعتين تأكلها الأفكار وتمعمقها النظرات ،ثم وصلت الطائرة .

المطار شيء رائع ..كتلة من الأناقة والنظام ..ورغم ذلك لم يرتح قلبها لحظةً واحدةً . وداهمتها أحاسيس سوداء كلون ردائها لم تعتدها من قبل .

لا تعرف لماذا شعرت بقلبها ينقبض عندما هبطت من الطائرة ،وبإحساس هائل بالوحشة يطغي علي مشاعرها .

لا تعرف لماذا تعثرت. لقد شعرت بيد خفية تدفعها نحو السقوط . ولولا ذراع زوجها القوية لهوت أرضاً.

نظر لها زوجها بتعجب ثم سألها :

- لماذا وجهك أصفر وشاحب ..أهناك شيء يضايقك ؟.

اضطرت أن تكذب عليه لأول مرة في حياتها وقالت :

- لاشيء الضغط المرتفع في أثناء الصعود والهبوط أتعبني قليلا .

اكتفى زوجها بالتفسير ثم مضى في طريقه، يدفع عربة الحقائب ، وهي خلفة تتساءل عن حقيقة تلك اليد الخفية التي شعرت بها تدفعها من الخلف.

ركبت سيارة الشركة التي انتظرته مع سائق بنجالي شاحب الوجه ..لونه مصفر ..وكأنه عود ذرة جاف ..تعجبت من لهجته ونطقه للغة العربية، ولكنها ظلت صامتة ..تتابع كل شيء في دهشة .

طريق ممهد جيداً ..علي جانبيه أشجار النخيل ذات اللون الأخضر الباهت المصفر ،وخلفه تمتد مساحه لا نهائية من اللون الأصفر.

مساحة مخيفة مقبضه ..تثير الشجن وتزيد الإحساس بالغربة ..صحراء لا حدود لها ..

لقد استحال اللون الأصفر البهيج إلي لون آخر ..لون يبعث علي الكآبة..

هالها ما شعرت به ..أين البهجة التي كان يصبغ بها اللون الأصفر يومها؟.

أغمضت عينيها، وهي تحاول أن تمحو تلك المشاعر السلبية التي اقتحمت روحها منذ أول يوم ..في هذه البلدة .

وتغير تعبير الجزيرة التي ستجمعها بزوجها وحبها الوحيد إلي واحه ..واحة بقلب الصحراء ..

رددت بينها وبين نفسها ..اللهم أعني علي نفسي، ولا تفاجئني بشيء لا أتوقعه .

- هووووف ..قالتها دون أن تدري ..

فنظر نحوها زوجها باستنكاروقال بصوت قلق :

- أهناك ما يسوءك ..يا حبيبة قلبي ؟

قالت بصوت ممتلئ بالضيق لم تحاول أن تغير نبراته :

- إنها الشمس ..والرطوبة ..وكأن التكييف لا يعمل .

نظر نحوها نظرة جانبية وقال :

- تشجعي يا حبيبتي ..أيام قليلة وتعتادين على هذا الجو ..إن الطقس هنا أرحم بكثير من مناطق أخري .

توقفت السيارة أمام عمارة حديثة البناء في مكان غير راقٍ تماماً، وحولها العديد من المنازل القديمة ..هبطت من السيارة في رهبة وخطت أولى خطواتها فوق الشارع الباهت الذي لا روح فيه ولا بشر ،والذي يضم عش زوجها الجديد،ونظرت حولها في ضيق بعد ان لفحتها نسمة هواء ساخنة محملة بالرطوبة جعلتها متوترة أكثر.

حمل زوجها إحدي الحقائب والعامل الآخر الحقيبة المتبقية ،ثم صعدوا حتى الطابق الثالث ..البناية من الداخل جميلة :الحوائط والدرج يكسوهم الرخام ..وشقتها رغم صغر حجمها ..أنيقة ولمسات زوجها مع معطر الجو المعبق برائحة الخزامي جعل روحها تعود إليها من جديد .

دخلت غرفة نومها الجديدة ..نظرت فوق التسريحة فوجدت عطرها المفضل ..وعلبة أدوات زينه ضخمة الحجم ذات أدراج ..دارت بعينها ليصطدم بصرها باللون الأصفر البهيج من جديد ..لم ينس زوجها في غمرة انشغاله وأعماله ..أن يحضر لها قميص نوم حريري أصفر اللون.

كانت لمسه رقيقة منه، حتى أنها استقبلته بقبلة طويلة بعد أن صرف العامل وعاد ملهوفاً من أجلها.

وفي هذه الليلة ..كانت الكلمة العليا ..للون الأصفر ..الحريري .

***

استيقظت من النوم مبكراً ..ونظرت إلي زوجها الغارق في النوم ،ثم ابتسمت في رقة ..أزاحت شعرها الناعم إلي الوراء، ثم عقصته في شكل كعكة وأضاءت الأبجورة وأخذت تتأمل غرفة النوم جيداً.

الستائر أنيقة ..بهيجة ..صفراء اللون مع نقوش كحلية مصممة ببراعة .. السرير كبير الحجم جداً يتسع لفرد ثالث ..الدولاب أبوابه تنزلق لا

تفتح لتوفير المساحة ..التسريحة قطعة من الفن الجميل بمرآتها الصافية ..

ولكن ما هذا ؟..

كيف لم تره بالأمس ..

من أين أتي هذا المظروف وهذه الزهرة الحمراء ..

تسللت من فراشها بنعومة واتجهت نحو التسريحة ،ومدت يدها إلي المظروف الأصفر المكتوب فوقه بخط زوجها المنمق :

-"نورتي بيتك يا حلم حياتي ".

فضت المظروف لتجد قلادة ذهبية تحمل صورة زواجهما .

ابتسمت في رقه وانتعشت روحها .

فاستدارت تنظر نحوه ..لتمتلئ عيناها بابتسامته الرائعة .

واندفعت في حضنه ،لتمتص من حنانه ورجولته ،ما يفوق رغبتها في الاستمتاع .

وأثناء ممارستهما للفعل الحميمي ، فتحت عينها لتتمتع بوجه زوجها الغارق في النشوة ، ثم أطلقت صرخة عاتية لتبعده عنها ، فقد كان وجه زوجها يحمل ملامح مخيفه .

كان وجه زوجها، يشبه وجه الشيطان .

مرت عدة أشهر علها ..وروحها تأبي التأقلم ..وتلك الذكرى المخيفة تلح على عقلها بإصرار، حتى أنها شعرت بكراهية غريبة لزوجها لم تجد لها مبرر.

إن هذا الحصار المؤلم، والسجن البغيض المؤثث بأناقة يضغط علي روحها ، ويجعلها غير مستريحة .

اكثر من مرة كادت أن تصارحه بمشاعرها، ومقتها للوجود في الغربة . وخوفها من بقائها معظم الوقت وحيدة ، مع كل تلك الهلاوس المخيفة التي كانت تطاردها طوال الوقت ، ولكنها عادت وكظمت كلماتها في صدرها، وخاصة بعد أن رأت المجهود الكبير الذي يبذله في عمله ،فلم ترد أن تزيد همومه هموماً أخري ..

ولكنها في وحدتها جلست تبكي دون توقف ، وقلبها يخفق في خوف .

***

لماذا أصبح اللون الأصفر كئيباً مجأة..برغم عشقها المبرح له ؟.

ربما لأن كل هدايا زوجها تمحورت حول هذا اللون ..فجعلها تشعر أنها ثمن غربتها ..ووحشتها

هل يتحول العشق لكراهية بهذه البساطة ؟!

ثم ما هو هذا الحديث الذي لا ينتهي عن شحوب وجهها الدائم واصفراره ، وهزالها المستمر ..متى موقع متى ؟!..أن ترقص وتمرح في متفاها ، وهي تواجه ماتواجه

أن ذلك الوجه الشيطاني مازال يطاردها وينكد عليها حياتها .

لقد تساءلت لمرات عديدة عن قدرة الاف النساء علي التأقلم والعيش في بيئة معادية ..مثل تلك البيئة الجافة ..

أيام عجاف قصتها وهي تحاول التأقلم واسعاد زوجها لكن روحها لم

كانت تستطيع التحمل لفترة أطول. ولكنها تلك الرؤى العجيبه التي تطاردها صباح مساء وفي الحلم واليقظة ..

هل جنت ..هل اصابتها الغربة بمرض نفسي ما .فاقتحمت الهلاوس حياتها وجردتها من الطمأنينة والاستقرار

الا لعنة الله علي الغربة .

هل توجد أشباح صفراء ,أم أن عشقها لذلك اللون انعكس علي حالتها النفسية المتدهورة ؟! .. فأصبحت ترى أطياف صفراء ذات ملامح مخيفة ، تظهر وتختفي بداخل غرفة نومها طوال الوقت حتى أنها كرهت تواجدها بداخلها

إن ما يحدث معها لا يصدق ..لقد جنت بكل تأكيد ,والدليل علي ذلك هو تخلصها من كل ملابسها التي تحتوي علي اللون الأصفر دون ندم ,وطلبها المستمر من زوجها بتغير تلك الستائر الصفراء ذات النقوش الكحلية ، التي تثير كآبتها .

أي جحيم تعيش فيه هذه الأيام ؟!..

هل تحولت جزيرة العشاق ..إلي واحة ثم إلي سجن ..

ومع الأيام والضغوط النفسية الهائلة بدأت تهمل في نفسها ومنزلها ومتطلبات زوجها ، بل بدأت ترفض زوجها ذاته ,حتى حدث ..ما زاد الأحداث توتراً .

وكان هذا بعد العشاء في يوم ما من أيامها التي توقفت عن إحصائها.

كانت وجبة العشاء هي وجبتها الرئيسية.فزوجها يعود في السابعة منهكاً ، وكان كما اعتاد هذه الأيام يصطحب معه الطعام من الخارج. وهذا اليوم كان قد احضر كيسة لحم من مطعم باكستاني ,وكان اللحم مغطي بالكاري مما جعل لونه يميل إلي الاصفرار ..ويصبح كريهاً في عينيها الذابلتين .

نظرت نحو الطعام ..داعب اللون الأصفر عينيها ..شعرت بالحمض يتصاعد إلي حلقها ثم اندفعت نحو الحمام ..لتفرغ ما في جوفها . والدموع تهطل علي وجنتيها ، وصرخة صامتة تمزق كيانها المشوه .

نظرت نحو المرآة المعلقة فوق الحوض ففزعت وانطلقت منها شهقه مكتومة ، وهي تتطلع لوجهها الذابل الذي شحبت بشرته أكثر منذ تذكر آخر مرة طالعت فيها المرآة ,والأدهى أن لون وجهها الشاحب المصفر خالطه سواد خفيف..فكان منظرها أشبه بجثة متحركة ..

وعندما ابتسمت لها صورتها في المرآة ، غزا البرد جسدها ، وتأكدت من نهايتها المخيفة ,ويومها تأكدت أنها لن تستطيع الصمود أكثر..
الغربة تلتهم حيويتها ، والجنون يسيطر علي روحها,ولو استمر الوضع علي هذه الحالة، فستفقد أكثر من لون وجهها النضر.
أكثر بكثير .

***

باغتها الدوار كثيراً ولم ينقطع القيء .

ورغم سعادة زوجها بالبشري السعيدة وحمل زوجته إلا أنها كرهت أيامها وحملها وأخذت تتابع مرور الأيام في رعب وخوف وقلق..

فالرؤى المخيفة تضاعفت ..وأضيف لها .عنصر جديد جعلها كابوساً لا ينتهي ..

طفلها المنتظر كان يحضر لها في المنام كشبح أصفر شاحب. ككل الرؤى الأخرى .

كانت تموت كل يوم عدة مرات من الخوف والألم والقلق، واتخذت قرارها الكبير ذات يوم :

- يجب أن أعود إلي مصر حالاً ؟!..

صعق زوجها ،وهو ينظر نحوها بذهول، ثم قال بصوت مختنق :

- هل قصرت معك في أي شيء ؟! هل صدر مني ما يؤذيك دون أن أدري؟!..

وكانت إجابتها الثابتة علي كل الأسئلة :

- أريد أن أعود لمصر...

وعادت ..

ولكن الأمر لم ينته ..لقد بدأ هناك وبقسوة أكثر..

***

(٢)

استقبلها أهلها وأهل زوجها في المطار بالترحاب الشديد مما زاد سخطها ، وجعلها تتساءل :

كيف يبتسمون لها ومنظرها بهذا الشكل المزري ؟!.. كيف يبتسمون لها وروحها مثقلة بمثل هذه الهموم ؟!.. أي جحيم هذا ؟!..

استقبلت ترحابهم بفتور ،ولكن فرحتهم كانت أكبر من أن يكسروها بتفسير ذلك التعبير الحزين علي وجهها، وأولوه بحزنها علي فراق زوجها ،ولكن هذا التأويل لم يقنع الجميع، وهذا ما أثبته الحوار المقتضب الذي دار بين سيدتين من أقارب الزوج يظهر من ملابسهما أصلهم الريفي ..

فقالت الأولي بصوت مستنكر ،وهي توجه حديثها للثانية :

- لماذا وجهها أصفر هكذا ؟!..ألم يكن يطعمها ؟!!..

فأجابت الأخرى بعد لحظة تفكير:

- نساء هذه الأيام لا يصلحن لأي شيء ..حتى الحمل يعتبرونه مشقة ..لقد أنجبت سبعة دون أن أكف يوماً عن أعمالي المنزلية .

فنظرت نحوها الأخرى وهي تهز رأسها موافقة، وقالت وهي تمصمص شفتيها :

- على رأيك،ولكن أرأيت الطقم الذهبي الكبير الذي يتدلي من صدرها؟.

نظرت الأخرى نحو الذهب بعين جشعة ثم قالت :

- ألم تكن أمنية ابنتي تستحق هذا الزوج الثري ، وهذا الذهب المتلألئ ..بدلاً من مائل الحال الذي يجبرها على العمل ليل نهار.

غمزتها صديقتها لتصمت عند اقتراب إحدى النساء منهم ، فرسمت الاثنتان ابتسامة مفتعلة علي وجهيهما واندمجا مع الجميع وانقطع الحديث .

انطلق الميكروباص الذي يحمل الجميع في طريقه المزدحم، وهي تجيب بروح فاترة علي سيل الأسئلة الذي لم ينقطع والذي لم تشترك فيه والدتها .

ووصل الجميع إلى المنزل .

وبعد عدة ساعات كانت أثقل علي صدرها من المقطم انصرف الجميع ودخلت غرفتها .لتدخل خلفها والدتها وعلي وجهها تعبير مخيف .

***

شعر قلب الأم بحالة الابنة، ولكن الابنة لم تعط مجالاً للأم لتستفسر أكثر وتعللت بشهور الوحم، فغادرتها الأم بروح قلقة وقلب منقبض، وعقل غير مستريح ، لتلقي هي بنفسها فوق الفراش ..

الفراش الذي شهد ..طفولتها وصباها ..وهاهو يشهد جنونها .

لم يكن الأمر سهلاً لتقنع زوجها باتجاهها مباشرة إلي منزل أبيها .ولكن حالتها أجبرته أن يجبر الجميع علي الامتثال لطلبها ..وليته لم يفعل ولم يتركها لتعيش وحدها هذا الكابوس المطلي باللون الأصفر..

إنها وحيدة والشيطان يطاردها

***

وفي الصباح تسلل من النافذة ضياء الشمس الأصفر الفتي ليغمر الغرفة وينعكس عن المرآة الكبيرة المواجهة للسرير فيصطدم بوجهها ويجبرها علي الاستيقاظ كما كان يحدث في أيام الصبا والدراسة .

ابتسمت لتلك الذكري السعيدة .وشعرت بروحها تتجدد ، وهي تتذكر كلماتها لصديقتها بالمدرسة هدى :

- أنا لا أحتاج لمنبه ..فعندي منبه طبيعي يوقظني كل يوم ؟!

نظرت يومها صديقتها بغير فهم فأشارت نحو الشمس عبر نافذة الفصل وقالت

- الشمس هي منبهي الطبيعي توقظني كل يوم ؟!..

أزاحت صديقتها خصلة نافرة من شعرها، وقد بدا علي وجهها عدم الفهم، وقالت .

- وكيف ذلك ؟!

ابتسمت هي يومها وقالت

- غدا تبيتين عندي وسترين بنفسك و...

يومها قطع حديثهما دخول المدرس لبسبب. وهو يشهر في يده خيزرانه تم لفها بلاصق أسود فبدت في يده كسيف الجلاد ..

قضت صديقتها الليلة التالية عندها . واستسلما للنوم في فراش واحد وفي الخامسة صباحاً احترقت أشعة الشمس زجاج النافذة وانعكست علي الوجوه بطريقة مرعجة فاستيقظت صديقتها وهي مستاءة وقالت :

- من أين يأتي هذا الضوء المزعج ؟!

استيقظت رنا وهي مبتسمة وقالت :

- هذا هو المنبه الطبيعي يا هدى ، ألم تلحظي ذلك ؟!

ظهر الضيق جلياً علي وجه صديقتها التي سحبت الوسادة ، وضربتها بها علي رأسها وقالت في ضيق :

- أقسم بأنك مجنونة..ما ذنبي أنا لأستيقظ في الخامسة صباحاً يوم الجمعة ؟

يومها ابتسمت ابتسامتها الجميلة في وجه صديقتها التي بادلتها الابتسام وقامت، واغلقت النافذة لتقضي علي ذلك الانعكاس المزعج .وغرقا في النوم من جديد .

تململت هي في فراشها وحاولت أن تنفض غبار الكسل الذي نثرته سهرات الليل بين جفونها .وغيرت من مكان رقدتها لتتفادي شعاع الشمس المنعكس من المرآة علي وجهها و تنفست في عمق ونظرت حولها. ثم تجمدت مكانها وعلي وجهها ظهرت ملامح خوف عميق .

جالت ببصرها في الغرفة التي استحال لون جدرانها من الأخضر إلي الأصفر. واكتسي كل شيء فيها بلون شاحب كريه أصابها بغثيان رهيب حتى كادت أن تتقيأ ما في جوفها ..

نهضت من فوق الفراش وهي تشعر بضعف عارم ..

نظرت إلى يمينها فلم تجد الدولاب إلى يسارها ولم تجد المقاعد ..رفعت بصرها فوق الباب فوجدته مغلق وبه كوة مغلقة بقضبان حديدية ..

اندفعت نحو باب الغرفة .

نظرت من الكوة تلتمس الفهم والمعرفة .

نظرت عبر القضبان الباردة لتجد خلفها فضاء هائل من اللون الأصفر ،ومن قلب العدم ظهر وجه طفل شرير ..يبتسم في شبق وفي عينيه نظرة مخيفة تجمد الدماء في العروق ..

احتبست الصرخة في حلقها .

أصبح تنفسها أكثر صعوبة وحركتها شبه منعدمة ..

فتح الطفل فمه فبرزت أنيابه الحادة ..

عبر الطفل برأسه بين القضبان ،وكأنه لا وجود للقضبان أو أن رأسه صنع من مطاط ،ثم انقض عليها .

أخيراً انطلقت صرختها ،وفتحت عيونها لتصطدم بالظلام ..مدت يدها لتشعل الأباجورة المجاورة .وملأت عينيها صورة الغرفة الغارقة في الظلال والستائر التي تحجب النافذة الزجاجية،وقبضت بأصابعها المضطربة علي الفراش وانطلقت في نوبة بكاء محمومة .

لقد كان كابوساً ..ولكنه أقرب إلي الواقع ..كابوس مخيف .

كابوس يظهر فيه طفلها القادم كوحش يريد التهامها .

استجمعت شتات نفسها، ونظرت حولها بعينين ممتلئتين بالدموع ،وقالت محدثة نفسها :

- حتى غرفتي القديمة تكره استضافتي ؟!..

ظلت لدقائق مستيقظة ودموعها تنهمر إلي أن استسلمت للنوم من جديد .

وكان نوماً بلا أحلام .

***

مر أسبوع كامل وهي في صراع مع الرؤى والهواجس، ولم تجد والدتها بد من إحضار أحد الدجالين لرؤيتها برغم اعتراضها العنيف علي الأمر، ولكن متى استطاعت أن تقف في طريق والدتها .

صدمها شكل الدجال ..

لم يكن شيخاً بديناً خبيث الرائحة .ولكنه كان رجلاً في منتصف العمر يرتدي جلباباً ناصع البياض، ويحمل في يديه مسبحة مصنوعة من الفضة وبخنصره خاتم من الفضة أيضاً مطعم بفص من العقيق. له لحية خفيفة ووجه وسيم وتفوح من ملابسه رائحة المسك، ويحمل موبايل من أحدث الطرز.

شعرت من شكله ،ومنظره أنه مدعي لا توجد حوله تلك الهالة من الرهبة والعلم التي تعطي الاطمئنان لمن يتعامل معه ..يبدو شكله كواعظ أكثر منه مشعوذ أو ساحر يفهم في مثل هذه الأمور .

ولكنها استسلمت لإرادة والدتها ، وقصت عليه قصة شبح الطفل الأصفر وظهر علي وجهه الاهتمام ..ولحظات وبدأت الشعوذة .

أخرج من حقيبته مبخرة فضيه عليها نقوش غريبة، ثم ملأها ببخور نفاذ الرائحة له شذى آسر. وبدأ يقرأ القرآن ويتمتم ببعض الكلمات المبهمة .

بدأ يطلب من روح ما الحضور ومساعدته .

اهتز التيار الكهربي للحظات ..

فسرت قشعريرة باردة في جسدها تبعتها شهقة من والدتها ..ولكنه استمر في طلب الروح بإصرار شديد .

لحظات وشعرنا بحضور ما ، وبأن الجو معبأ بكهرباء إستاتيكيه عالية، وانطفأ المصباح الكهربي تماماً.

بل أنطفأ النور في كامل الحي ..

قبضت أمي علي يدي في رعب، وسمعت صوت تنفسها ولهاثها وسط الظلام الدامس ، ولولا أن عاد التيار الكهربي مرة أخري، وبسرعة لتوقف قلب هذه العزيزة عن النبض ، وربما قلبي أيضاً.

نظرت لذلك المشعوذ فوجدت القلق ظاهراً جلياً على وجهه .

لقد كان خائفاً هو الأخر.

نظرت والدتها نحوه في خوف وسألته بصوت مرتجف :

- هل انتهي الأمر ؟!..

رمقها ذلك الدجال الذي لم تعد تري وجهه وسيماً بنظرة كريهة وقال :

- لم ينته شيء ولم تنجح الجلسة ..شيء ما شرير منعها من أن تتم كما هو مقدر لها ،ولا أخفي عليك الأمر يا سيدتي إن ابنتك ممسوسة بجني قوي ،وأغلب الظن أنه كافر..

ارتجفت شفتاها وكادت قدماها تخذلانها : فاستندت علي مقعدها ،ثم عادت وجلست فوقه ،وهي تنظر نحوه في قلق وقالت :

- أهو المسئول عن انقطاع التيار الكهربائي ؟!..

هز رأسه دون أن يتحدث مؤكداً علي كلامها . فقالت بصوتها الخائف ... بجوارها ترتجف ،وقد بدأت تتوتر وتصيبها عدوي الخوف والإيمان ... بقول :

وهل هناك حل ؟!..

صمت لما يتجاوز النصف دقيقة، ثم هز رأسه وقال بصوت عميق :

بالطبع هناك حل ولكن ..

نظرت والدتي نحوه بلهفة وقالت :

- ولكن ماذا ؟!..

أخذ المشعوذ في جمع أدواته، ووضعها في الحقيبة وهو صامت ،ثم رفع وجهه نحوها وقال بعيون لامعة :

- ولكنه سيتكلف كثيراً ..

تنفست والدتها الصعداء وقالت بسرعة :

- لا يهم النقود المهم أن تطرد هذا الجني الشرير،وتعود ابنتي لحياتها الطبيعية.

جذبت رنا أمها من ذراعها وقلت لها بصوت هامس :

- أمي ..إني خائفة ..

جذبتها أمها لصدرها وقالت بصوت مشفق حنون :

- لا تخافي يا صغيرتي ..والدتك مجوارك.. لا تخافي ..أنا هنا لحمايتك

وفي المساء ..انقطع التيار الكهربي في الحي ،ورأت هي طفلها الصغير ولكنه هذه المرة كان طبيعياً ،وبجواره شبح أصفر يستعد للفتك به

لا تعرف ماذا حدث بعدها ،ولكنها استيقظت في اليوم التالي لتجد نفسها في فراشها ،ومحلول طبي معلق بحامل بجوار السرير يتصل بجسدها ،ووالدها نائم بجوارها على مقعد عريض ،في حين كانت والدتها ساجدة فوق سجادة صلاة.

نظرت لهما ثم ابتسمت في وهن ..ونامت بعمق ..حتى صباح اليوم التالي..

وفي اليوم التالي وقعت الكارثة .

***

جاءها اتصال من الخارج لا يحمل رقم زوجها المعتاد ..لقد أصيب زوجها في حادث سير ،و هو يقبع هناك على بعد آلاف الأميال ..وحيداً و في غيبوبة .

إنها ستلد في أي لحظة ،ولا يمكنها أن تسافر له . الطيران خطر على الطفل . مئات الجنيهات ضاعت على اتصالات لا جدوى منها .

والغريب أن صديقه المقرب أخبرها أنه يستيقظ من غيبوبته للحظات ليردد كلمةً واحدةً مخيفةً ، قبل أن يعود لغيبوبته :

" الشيطان ".

تجمد الدماء في عروقها لدى سماعها للكلمة ، وتجسد في عقلها تلك الصورة المخيفة لوجه زوجها .

قضت أيامها الأخيرة في حداد ،وعندما فاجأتها آلام الوضع جاءها الاتصال على هاتفها المحمول، أصرت على الرد برغم أن آلام الوضع كانت كاسحة .. كانت تتمنى أن تسمع أي خبر مبهج يرفع من معنوياتها، ولكن يبدو أن الرياح لم تعد تأتي إلا بما لا تشتهي السفن ..وعرفت الخبر المفجع .

زوجها يحتضر.

أطلقت صرخةً ملتاعةً ..ثم صرخة ألم .

وبعد ساعات كانت قد ولدت طفلها ، طفلها الذي حرموها من رؤيته لأنه أصيب بالصفرة ويجب أن يقضي أيامه الأولى في الحضانة ..

الكابوس يتحقق .

مات زوجها غريباً وحيداً،ودفن في أرض لن تكون أحن عليه من أرض وطنه ، وآخر كلمة رددها كان اسمها ، وكأنه كان يطلب منهم ، أن يحموها من خطر مخيف مجهول .

وولد طفلها غريباً ..أصفر اللون .

لقد أتى الطفل ..فكان على الأب أن يذهب ..أي لعنة هذه ؟! ..

لماذا لا تمنحها الحياة فرحة كاملة ..لماذا تصر على كسرها في اللحظة التي اعتقدت أنها ستبتسم لها ؟.

لا تعرف لماذا حملت طفلها الرضيع مسئولية مصرع والده ، ولماذا ظلت تنظر إليه على أنه هو الذي استمد حياته من زهرة حياة أبيه لقد اقترنت صورته بداخلها بصورة الشيطان .

***

تتذكر حديثاً قديماً لزوجها ربما لم يكن يتطرق إلى الأطفال في حينها، ولكنه معبر عن الواقع الحالي :

- في بعض الأحيان أنت تزرع من يحرص على اقتلاع جذورك من الحياة.

- ولماذا تفعل ذلك ؟

- إنها سنة الحياة .

- إنها سنة مشوهة .

- الحياة نفسها كتلة من التشوه .

***

في الأيام التالية بدأت فكرة مخيفة تترسخ بداخلها .

إن طفلها غير طبيعي ..غير طبيعي أبداً.

• يحدجها بنظرات قاسية لائمة ..هل يتهمها بالتخلي عن أبيه ؟..هل يتهمها بأنها سبب موته ؟..هل يكره الأطفال في هذا العمر؟!..

هل انعكست الآية الآن ؟..

الداهية ترتسم في عينيه، وتظهر جلية على ملامح وجهه.

هل جنت من الصدمة ؟ هل تلفت أعصابها فهيأت لها ما ترى ؟.

العجيب في الأمر أن طفلها الرضيع لا يداري كراهيته عنها،و كلما رآها فإنه كان يبتسم في تشفي .

يبتسم وكأنه يريد أن يؤكد لها على أفكارها السوداء .

وذات مساء كئيب ، شعرت فيه بضياع هائل وتدهورت حالتها النفسية إلى أقصى مدى ، هاجمتها الرؤية الأخيرة .الرؤية التي جعلت دموعها تهطل على خدها أثناء استغراقها في النوم .

في قلب فضاء هائل مظلم، رأت زوجها الراحل، وبجواره طفلها الرضيع ينتصب على قدميه الصغيرتين ، وعلى وجهه إبتسامة شريرة .

شعرت بخوف مريع .

بكت .

نادت عليهما .

تجاهلها زوجها وانطلق في طريقه يسير نحو نقطة متوهجة في قلب الظلام ،ثم لمحت صغيرها ينفصل عن أبيه ، ويمد يده نحوها لم يكن يبغي المساعدة أو الأمان .

إن وجهه لا يحمل أي ود إليها ، فقط تشكلت في يده زهرة صفراء ..زهرة صفراء ذابلة .

منحها لها .

حاولت أن ترفض هديته .

قاومت .

بكت .

ولكن في النهاية قبضت الزهرة بين كفيها رغماً عنها كجثة هامدة ،وتلاشى من أمام عينيها زوجها الراحل ومعه صغيرها ،وبقي الظلام .

شعرت بأن روحها تسحب منها، نظرت نحو الزهرة الصفراء الذابلة ،صرخت ، وصرخت و صرخت :

- إن الزهرة الصفراء تعني الفراق .

واستيقظت بقلب منقبض ووجه غارق في الدموع .

وفي اليوم التالي مات طفلها ..مات وعلى وجهه ابتسامة ..ابتسامة حارت في معناها .

ابتسامة صفراء .

***

وعندما هموا بدفن صغيرها، وأمام المقبرة المستعدة لابتلاع جثة صغيرها، تذكرت كلمات الشيخ كمال الكئيبة :

لم ينته شيء ولم تنجح الجلسة ..شيء ما شرير منعها من أن تتم كما هو مقدر لها ،ولا أخفي عليك الأمر يا سيدتي إن ابنتك ممسوسة بجني قوي ،وأغلب الظن أنه كافر .

***

وفي المساء رأت ذلك الجني العاشق يتجسد أمامها، طيفاً شبحياً له عيون صفراء مشتعلة ، نظر لها في ود قبل أن يقول بصوت مخيف مهشم النهايات :

- أنت لي ..لي وحدي.

ولحظتها عرفت كنه لعنتها ، وعرفت أن تلك العيون المخيفة لا تحمل لها إلا الشر.

القدح



(١)

يقول الرجل الحكيم :

- لا تقبل أبداً هدية من شخص لا تعرفه، خاصة لو كان قدحاً قديماً مليئاً بالنقوش .

- وهي نصيحة جديرة بالاهتمام ، ولكن من يصغي للحكماء هذه الأيام؟

تعشق هناء الأقداح الفخارية، وتكاد تقسم أن كل قدح يعطي لمشروبها المفضل نكهة مختلفة، وكأن لكل قدح شخصية خاصة به يفرضها على ما يسكب داخله من سوائل .

لذا تحرص هناء على تنوع الأقداح التي تتناول فيها " النسكافيه " مشروب العقول الأول كما تحب أن تطلق عليه .

تحب هناء اقتناء الأقداح الفخارية القديمة وبخاصة المستعملة منها ولا تكل ولا تمل من البحث عنها في محلات الأشياء المستعملة والحوانيت القديمة خاصة في الأماكن الشعبية . وكلما وجدت قدحاً قديماً تشعر وكأنها وجدت كنزاً ثمينا .وكلما ضرب القدح في القدم كلما زادت نشوتها وغبطتها .

هواية عجيبة ولكنها تمارسها دون خجل أو كلل . فلا تتضايق من تعليقات صديقتها المقربة ضحى، عن كيفية تناولها مشروبها المفضل أو

أي مشروب آخر في قدح قد استخدمه قبلها أشخاص مجهولو الهوية لا تعلم عن حقيقة نظافتهم .أو الأمراض التي أصيبوا .أو التي يمكن أن ينقلوا لها شيئا

وكان ردها الجاهز أن كل الكافيتريات والمطاعم والمقاهي تستخدم أقداحاً وآنية تنطبق عليها كل هذه الصفات . ولا يأنف الناس منها .

كان منطقها مخيفاً ومفزعاً ولكنه برغم كل شيء، حقيقي ويدعو للتأمل على الأقل هي تقوم بنفسها بتنظيف القدح وتعقيمه والعناية به قبل استخدامه : وهي فرصة لا تجدها في المطاعم والمقاهي وثلاجات المياه العامة وأماكن أخرى مماثلة

فلو طبقنا الأمر على كل شيء ..لن نأمن فراشاً في فندق أو مستشفى . ولا طعاماً في مطعم .ولا مشروباً في مقهى، ولا أريكةً في مصلحة حكومية. ولا مقعداً في وسيلة مواصلات .

كل شيء تم استخدامه من قبل ويعاد استخدامه مرات ومرات . لن نأمن أي شيء..وسنضطر إلى غسيل الصابونة بالصابونة .كما كان يفعل الموسيقار محمد عبد الوهاب .

الحياة مفخخة والتركيز معها يفقدها بهجتها، بعض الإهمال قد يكون شيئاً صحياً . وهي وجهة نظر مريحة إلى حد ما .

في منزلها تجد احتفاء هناء مضاعفاً بهذه الأقداح الفخارية .

خزانة كاملة لها تحتل الصالة بأكملها مرتبة حسب العمر التقديري لها.والعمر التقديري هذا لا يركن لطريقة علمية محددة..بل مجرد انطباع نفسي يراودها بمجرد أن تحيط به أصابعها وتتأمل عيناها حالته وتفاصيله .

إن اهتمامها بهذه الأقداح صار حالة مرضية ..حتى أنها تحلم طوال الوقت بسيد الأقداح ..القدح المميز الذي سيمنحها حياة مختلفة .

في خزانة هناء أو "النيش " كما تحب أن تسميه و كما هو شائع ، يمكن لك أن تشاهد أغرب أقداح قد تكون شاهدتها في حياتك .. إنها هوايتها الأثيرة . هناك أقداح تحمل أعلام بلاد مختلفة ومعالم أثرية وصور حيوانات وصور كرتونية وشخصيات شهيرة ، وبعضها يحمل حروف وأرقام بلغات متعددة ، والبعض الآخر يحمل زخارفاً مختلفة كما أن هناك أقداحاً خالية من أي صفات مميزة . وهناك المربعة منها والدائرية والمتبعجة.

إنها جنة الأقداح لو طلبت رأيي.

زوجها يخبرها كم هي معتوهة . فالهوايات التي يعرفها يجب أن تكون منطقية ولها هدف .. ما الهدف من جمع الأقداح المستعملة، والتي لا يمكن أن تكون ذات قيمة إلا بعد مئات السنين ..عندما يتحولون هم وأحفادهم إلى مومياوات متحللة ..وتتحول هي إلى أقداح أثرية .. لقد ظل يؤمن أن جمع الطوابع هواية سخيفة ولا معنى لها حتى علم بأسعار بعضها الفلكية.. وبرغم ذلك لم ينف الجنون عن مقتنيها .

وعلى الرغم من رأيه في هوايتها الأثيرة ،فإنه كان يحرص على إرضائها ، وعندما تقع يده على قدح خزفي مميز،فإنه يحضره لها على الفور .. كم من صديق انتزع منه قدحه المفضل ليهديه لها .. فالأقداح حسب هوايه هناء الغريبة لا تكون ذات قيمة إلا لو كانت مستعملة .

زوجها لا يعلم أنها تتناول مشروبها المفضل في هذه الأقداح بالتناوب وربما لو علم .. لكانت له وقفة صارمة مع هذه الهواية المنفرة ، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يعتبر الأمر أكثر من مجرد شطحة أنثوية لا بأس من استغلالها في صنع لحظات رومانسية خلابة ، وعامة الرجال قليلو الملاحظة لن يلفت انتباههم تغير قدح الزوجة المفضل ، ولا بعد ألف عام من الاستعمال.

***

شاي بالفواكه ..شاي بالشيكولاته ..شاي بالفانيليا.. شاي بالمراولة .شاي بالليمون ..شاي بكل شيء .

لا تعرف لماذا اختارت من فوق رف السوبر ماركت ذلك المشروب الجديد ، هي التي لم تغير مشروبها المفضل منذ البلوغ .

شاي بالشيكولاته يبدو واعداً جداً .

انتهت هناء من جولة التسوق المعتادة. ثم توقفت أمام الكاشير لتدفع ثمن مشترياتها .. عندما سقط بصرها على القدح البرتقالي الشكل الذي يمثل نصف برتقالة مبتسمة ،والذي يتصاعد منه البخار في

كثافة . والموضوع على المنضدة بجوار الكاشير ..وارتعش جسدها في عنف كمدمن في حاجة لجرعة جديدة من المخدر.

إن القدح يناديها ..إنها ترغب بشدة في اقتنائه ,ولكنها لا تجرؤ على طلبه .لابد أن للهوس بالأقداح اسماً علمياً طويلاً في دوريات علم النفس ، وربما تناوله "فرويد" في أبحاثه وربطه كعادته بالجنس .

زجرتها سيدة بدينة تقف في الصف خلفها فقد طالت وقفتها دون فعل شيء حقيقي ..فانتزعت عيناها من فوق القدح بصعوبة, وشعرت بشعور من يقوموا بنزع أظافره عنوة ..

سددت بطاقتها المصرفية تجاه الكاشير لتدفع الحساب ، ففوجئت بأن مشترياتها مازالت في السلة البلاستيكية التي تحملها. فدفعت بها فوق السير المنزلق ليحصي ثمها الكاشير .ثم غادرت المكان وصورة القدح تطاردها ..بعد أن دفعت حسابها نقداً لأن الشبكة معطلة كالمعتاد.

عادت إلى المنزل بنفس كسيرة,وكأنها تركت جزءاً من روحها مع ذلك القدح .

قدح على شكل نصف برتقالة ..ياله من قدح جميل ..

اجتاحها شعور ثقيل بالحزن وهي تفكر ..لو حظى الإنسان بالمتع الصغيرة التي تطرأ على عقله لصارت الدنيا جنة حقيقية.

انتابها الحزن لفترة لا بأس بها ..فقط المشروب الجديد هو من جعلها تنسى ..الشاي بالشيكولاته مشروب منهل..بل هو اكتشاف .. خاصة لو كان في قدح خزفي مطعم بصورة روميو وجولييت .

في المساء فاجأها زوجها بأنه تعرف على شخص غريب جداً ، وغرابة هذا الشخص في أنه يمتلك نفس هوسها وهوايتها في جمع الأقداح ..بل وهو يدعي بأنه يمتلك قدحاً نادراً جداً ..أحضره معه من أمريكا الجنوبية ..قدح مصنوع من مادة غير أرضية .وتقييمه لهذا الشخص أنه مخبول بل ووقح أيضا لأنه طلب لقاءها ..

وفي المساء حلمت بذلك الشخص .

—

هناء تعمل مدرسة لغة عربية في إحدى المدارس الخاصة .وظيفة لا تدر عليها ربحاً كبيراً ولكنها تسليها ، ولا تجعلها تفكر كثيراً في الإنجاب الذي تأخر كثيراً .. برغم أن الطب قال كلمته ..لا يوجد ما يمنع من الإنجاب ..أنت وزوجك أصحاء كالجياد .. إنها إرادة الله إذن..

كانت المدرسة ومسئولياتها تلتهم جل يومها .ولا تمنحها وقتاً كافياً للتفكير أو الاكتئاب .ولكنها الآن في فترة الإجازة النصف سنوية .. لذا فهي تملك العديد من الأسباب كيلا تستيقظ مبكراً، وكي لا تمنح للاكتئاب والحزن فرصة ليستوليا على روحها .

كانت قد سهرت بالأمس أمام إحدى القنوات الفضائية التي تعرض خمسة حلقات كاملة من المسلسلات القديمة . وكانت مستمتعة جداً

بأداء الممثلين في مسلسل ربا وسكينة . ولم تلتفت إلا والفجر يؤذن فقامت لأداء الصلاة ،وخلفها ربا وسكينة يقنعان السيدة التي سيحصر عليها الحمر بأنهم سيحققون لها ما تصبوا إليه ، قبل أن تكتم أنفاسها الخرقة المبللة بالماء .

لذا فإنها عندما نامت لم تكن تتوقع أن تستيقظ قبل الظهيرة ،ولكن في التاسعة صباحاً أزعجها رنين هاتفها المحمول بالنغمة المميزة لزوجها .

قبضت على الهاتف المحمول بغير وعي ،وظلت تتطلع لشاشته غير مستوعبة ما يحدث . ثم نفضت بعض النوم وأجابت على الهاتف .

- خيريا محمود لماذا توقظني الآن ؟!..

صوت محمود المضطرب :

- آسف يا حبيبتي لقد نسيت أوراقاً مهمة في غرفة الصالون .. ستجدينها في الملف الوحيد الموجود على المنضدة أرجو أن تحضريها لمقر عملي الآن .

عصف بها الطلب ،ودار رأسها للحظات خاصة ،وأن جسدها مازال مرهقاً, وفي حاجه ماسة للنوم، ولكنها أجابت في النهاية ودون تبرم :

- نصف ساعة وتكون الأوراق عندك .

..عت جسدها من فوق الفراش . بصعوبة نزع قطعة من الكيك الملتصق بقاع الإناء دون تدميرها . وخلال عشر دقائق كانت قد ارتدت لباسها .

مازالت تشعر بعدم توازن رهيب. لذا فإنها أعدت لنفسها قدحاً من "النسكافيه" الأسود ودون سكر. تحتاج لصدمة القهوة كي تفيق .

وضعت الأوراق في حقيبتها ثم غادرت .. لم تكن المرة الأولى التي تقوم فيها بشيء مماثل ..لقد اعتادت من زوجها الكثير من هذه الأمور .

ترجلت من التاكسي الأبيض بعد أن نقدته أكثر قليلاً مما ذكر في العداد . ثم ركبت المصعد إلى الطابق الثالث، وهي تقبض على حقيبتها وقدح "النسكافيه" الفارغ .

لم توقظها بعد صدمة القهوة كما تحب أن تطلق عليها .

دلفت إلى مكتبه على الفور ،واستقبلتها زميلته غادة بالترحاب قبل أن تتركها وتغادر . لابد وأن اليوم عاصف في العمل ..لم يكن زوجها على مكتبه وهو شيء معتاد ..لذا فإنها جلست على المقعد الخاص به خلف المكتب . وانتظرت عودته ،وهي تقاوم النوم في عنف ..

بعد عدة دقائق دخل الساعي عم إبراهيم الذي يعرفها جيداً وحياها ،وطلب منها القدح الفارغ الذي مازالت تقبض عليه ليملأه بمشروبها المفضل ترامناً مع دخول شخص بدين يرتدي ثياب نظيفة غير معتنى بها . ولديه شامة بحجم عملة معدنية على رقبته وشعر أبيض طويل. وإن كان لم يصل لكتفيه بعد

ما حدب بصرها لهذا الشخص هو القدح الخزفي الذي يحمله . ونظراته الى قدحها الخزفي تلك النظرة التي تعرفها جيداً . ركزت اكثر في وجهه ثم سمعت صرخة كادت أن تفلت من بين شفتيها إنه نفس الرجل الذي جاءها في الحلم امس هو بكل تفاصيله وبدانته وشامته الداكنة .

سرى في جسدها تيار بارد من الرعب مع النظرات الحادة لذلك الشخص الغريب ، ولم ينقذها إلا دخول زوجها ، والذي ظهر على وجهه الضيق عندما وجد ذلك البدين يتطلع إلى زوجته ..

عامله زوجها محمود بحده غير مبررة ،ولكن الرجل كان ملتصقاً كعلقة ،ولم ينصرف إلا بعد أن أهدى لهناء القدح الذي يحمله ..

كانت هناء تشعر بمشاعر مبهمة تجاه ذلك الشخص ذو الشامة مشاعر لم تستطع تفسيرها ، ولم تستمر في المحاولة خاصة مع نظرات زوجها القاسية .. لم تكن بحاجة لذكاء كي تدرك أنها أفسدت لزوجها يومه ، ولكنه من نسي الأوراق وليس هي ،اللوم لا يقع عليها بل عليه

غادرت المكان حاملة القدحين ، قدحها وقدح ذلك الشخص ذو الشامة.لم تستطع أن تترك القدح الاسطواني الشكل، والذي يحمل وجه "جيفارا "على الرغم من النظرة الصاعقة التي حدجها بها زوجها،وغادرت مسرعة لا تلوي على شيء .

والغريب أن الرجل ظل يتبعها ببصره ،حتى غادرت دون أن يحاول الاقتراب منها ، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة ظفر.

(٢)

الصباح التالي كان مختلفاً ..بل كان كارثياً .

فقد استيقظت هناء على صوت ضجيج صاخب ، وعندما حاولت استكشاف مصدر الضجيج ..قادها الصوت إلى الصالة خافتة الإضاءة ، وهناك أصابتها صدمة مروعة ، واتسعت عيناها في ذهول وهي تتطلع إلى خزينة أقداحها الثمينة ، وكادت روحها أن تفارق جسدها من هول ما ترى ..فكل أقداحها الثمينة قبعت في أماكنها مهشمة بطريقة غريبة..

كلها كانت مهشمة دون استثناء ،ودون أن تغادر المكان الذي وضعتها فيه هناء ، ووسطها كان القدح الأسطواني الذي يحمل صورة "جيفارا" سليماً لم يمسسه سوء .

تذكرت على الفور مقولة من قصة دينية قديمة :

- لقد فعلها كبيرهم .

ثم اجتاحها طوفان الأسئلة ..هل يمكن أن يكون هذا القدح الغريب هو السبب .. إنه لا يبدو في هذه اللحظة طبيعياً ..إنه الدخيل الوحيد على مجموعتها الأثيرة،ولكن هل للأقداح إرادة لتهشم بعضها بعضاً ،أم هي مكيدة من زوجها بعد أن قبلت من الرجل الغريب قدحه .

نفضت هذه الفكرة عن راسها تماماً ،فلا يمكن لزوجها محمود ان يقوم بهذه الفعلة الشاذة ، إنه أعقل من أن يستسلم لنزوة مماثلة ..هناك شيء مريب في الأمر.

نظرت هنه للأقداح المحطمة ،والتي لم تتناثر أجزاؤها كما هو متوقع في مثل هذه الحالة ، بل قبع كل قدح في مساحته المفترضة لم يغادرها ..وكأن من حطمها كان حريصاً على النظام ..

جميع الأقداح محطمة عدا قدح الرجل الغريب ..هناك أمر غير طبيعي يحيط بهذا القدح الذي يحمل وجه "جيفارا".

اقتربت من القدح اكثر ، وللحظة راودتها رؤية عقلية لقدح أخر أكثر قيمة وأروع شكلاً ..رؤية جعلها تنتفض ،وناقوس غامض يقرع بداخل عقلها . لقد عادت لتراه مرة أخرى ..إنه القدح السيد ..القدح الذي سيمنحها حياة مختلفة ..

قبضت على رأسها في قوة ..واعتصرت شعرها بيديها كي تفيق ..لا يمكن أن تستسلم لهذا الجنون ..أي قدح سيد وأي حياة مختلفة يمكن أن يمنحها لها قدح مصنوع من الصلصال المحترق ،لقد أصبحت تهذي .. بل وتحلم وهي مستيقظة ..

الشيء الأكثر إفزاعاً أن القدح الذي يحمل وجه "جيفارا" والذي حصلت عليه من الرجل ذو الشامة الكبيرة لم يظل على حالته الأولى بل كان يتألق بضوء فسفوري خافت . وعلى جانبيه ظهرت أرقام حمراء متتابعة ..أرقام تعرف هناء جيداً أنها لهاتف محمول يخص

شركة " فودافون" ..أرقام يخبرها قلبها الهلع بأنه لا يجب عليها أن تتواصل معها ..لا يجب عليها أن تستمع لندائها ..

ولكن من يكبح فضول امرأة .

نظرت في ساعة الصالة المعلقة على الجدار الجانبي ، الستائر التي تغطي النوافذ الزجاجية تجعل حساب الوقت غير دقيق .. بسبب ضعف الإضاءة ..إنها الثانية عشر ظهراً .. لقد غادر زوجها منذ بضع ساعات .. إنها وحيدة الآن .

اقتربت من القدح وقلبها ينبض كموتور سيارة خرب ..وكل خلية من خلايا جسدها ترتجف في رهبة ..

القدح أمامها مازال يشع بالوهج الفسفوري، والأرقام تتوهج على جانبيه ..الغريب أن صورة "جيفارا" تلاشت وظهر مكانها صورة لوجه ذلك الشخص البدين بشامته وشعره الأبيض المرسل وابتسامته اللزجة ..

لم تعد تبالي بكنزها من الأقداح المهشمة ..لم تعد تنصت لصوت العقل ..لم تعد تأبه إلا لنبضات ذلك القدح ..وتستمع لموسيقاه في شغف..إنه أروع قدح رأته في حياتها .

إنها تعلم الكثير عن الأقداح التي تعزف الموسيقى، والأقداح التي تتبدل صورتها مع حرارة المشروب ،ولكن الوضع يبدو مختلفا الآن .

الأمر يخرج عن كونه معتاداً ..فالقدح لا يحتوي على أي مشروب وحرارته متوازنة .

الأمر ساحر.

ساعة كاملة مرت عليها.وهي تتأمل القدح وتتأمل الأرقام المحيطة به.

لم تشعر مع نشوتها بمرور الوقت. ولا بذلك الإحساس الجارف الذي أخذ ينمو بداخلها,ويحثها كي تطلب الرقم النابض على محيط القدح من هاتفها المحمول .

إن الأمر مرعب ..ولكن رغبتها جارفة ..

الوقت يمضي ..والرغبة تتصاعد ..

فكرت في زوجها للحظات كطوق نجاة ، ثم نسيت كل شيء عنه بعد أن قبضت بيدها على القدح الذي ازداد توهجه وكأنه يحتفي بملمس أصابعها الرقيقة، وفي اللحظة التالية كانت تقبض على هاتفها المحمول، وعيناها تتطلع إلى الشاشة النابضة, وعندما توقفت النغمة المميزة للرنين سمعت الصوت الغليظ يقول :

- تأخرت كثيراً في النوم ، كنت أنتظر اتصالك منذ بضع ساعات .

قبضت على هاتفها المحمول بقوة كادت تهشمه . ولأول وهلة لم تستطع أن ترد .. إنها تقوم في هذه اللحظة بما يتنافى مع مبادئها ..إنها تحدث رجلاً غريباً عنها في الهاتف ..إنها لا تخون زوجها ..ولكن الأمر

الرب في اعتقادها .. اجتاحتها الأفكار السوداء ، ولكنها عادت لتنتبه مع ...وي الصوت الغليظ في أذنها :

اسف على تحطم أقداحك الثمينة ،ولكن صدقيني قدح أصلي قد يغنيك عن آلاف الأقداح الأخرى .

..ت بعدوانية واضحة :

ماذا تريد مني،وكيف جرؤت على تهشيم أقداحي، بل كيف فعلت ذلك ؟!..

كانت مشوشة إلى درجة كبيرة، وكانت تردد ما يأتي على عقلها مباشرة :

هل أنت بشري مثلنا ؟!..

ضحكة ساخرة طويلة صدمت سمعها ، قبل أن يأتي الصوت الغليظ :

نعم أنا بشري مثلكم ..ما الذي جعلك تظنين غير ذلك .

أجابت بحدة :

- ماذا تريد مني ..لماذا تقتحم حياتي بهذه الطريقة ؟.

جاءها الصوت أكثر غموضا :

- لأنك المختارة .. أنت من ستكملين المهمة .

صفعها الرد وكادت تغلق الهاتف ،ولكنها بغير إرادة انتظرت لتعرف أكثر ،ساد الصمت للحظات قبل أن يأتي الصوت الغليظ .

- نحن نشترك في نفس الهواية ، وأنا أملك ما يمكن أن تدفعين نصف عمرك لتحصلي عليه .

صمتت أكثر.فعاد الصوت :

- كل ما أريده منك أن تقابليني .وسأمنحك تعويضاً يفوق كل أقداحك المهشمة .

الصمت يزداد عمقاً .والصوت الغليظ يبدو. وكأنه ينومها مغناطيسياً.

- لابد وأنك علمت من زوجك ..بذلك القدح النادر الذي أمتلكه ..قابليني في منزلي بعد ساعة ..ولن تندمي أبداً.

حالة من الجمود أصابتها وهي تستمع للعنوان .. كل ذرة عقل وحكمة ترفض ما يقول ..ترفض أن تذهب لرجل غريب في بيته .

أغلقت الهاتف دون أن تجيب .. وعقلها يعجز عن الاستيعاب .وفي لحظة ضعف فارت مشاعرها .. وأخدت تبكي في خوف وهي تردد :

- أين أنت يا محمود أين أنت ؟!..

خبا تألق القدح مع انهاء المكالمة ، وعادت صورة "جيفارا" لتزين سطحه ، وجلست هناء وحيدة في صالة منزلها نهباً للأفكار ..المخيف أن هناك جزءاً ملعوناً بداخلها يحرضها على الذهاب .. مشهد أقداحها المهشمة يحرضها أيضاً ..إنها لن تذهب .لن تذهب وستقص كل شيء

على زوجها ليساعدها في هذه المحنة ، وبرغم معرفتها لعصبية زوجها إلا أنها تعرف أنه سيقدر المشكلة وسيقف معها .

لن يصلح الحديث معه في الهاتف . لذا فإنها استبدلت ملابسها المنزلية بملابس مناسبة للخروج .وهبطت إلى الشارع ، وعندما سألها سائق السيارة الأجرة عن المكان الذي ستذهب اليه .. لا تعرف لماذا منحته عنوان الرجل الغريب .

(٣)

هبطت من السيارة الأجرة أمام منزل الرجل الغريب ، وطلبت من السائق أن ينتظرها ،وأن يدخل لاستعجالها بعد ساعة واحدة لو تأخرت،ولم يمانع السائق الشاب بعد أن منحته مبلغاً سخياً، ووعدته بمبلغ آخر فور عودتها .وأمام منزل ذلك الغريب المكون من طابقين توقفت ،وقلبها ينبض في عنف ورهبة .

المكان لا يوحي شكله العام بسوء، وبرغم هذا تشعر أن كل شرور الأرض تسكنه .

السؤال الملح هنا والذي لم تجد له إجابة مريحة ..ماذا تفعل هنا ؟..لو غرر بها هذا الشخص ،أو اعتدى عليها لن يرحمها أحد .. وسيلقون بكامل المسئولية على عاتقها كعادة المجتمعات الشرقية .

ثوان ثمينة من التردد مرت عليها، وهي واقفة أما البوابة الخارجيه الأنيقة كتمثال من شمع ، وفي النهاية غلبها فضولها فضغطت زر النداء الخارجي المجاور للبوابة ، والتي انفتحت على الفور وكأنها تنتظر حضورها .

حديقة المنزل معتنى بها حديثاً. لا يبدو منزلاً مهجوراً. كما صور لها عقلها طوال الطريق .. بل ويظهر عليه الثراء أكثر من صاحبه .

تقدمت هناء في الممشى المؤدي للبوابة الداخلية . وهاتف بداخلها يحثها على التراجع والنفاذ بجلدها - إن عقلها يرى لها وكأنها على وشك مقابلة الشيطان نفسه ..

الشياطين فقط من تستطيع تهشيم الأقداح دون مسها .. الشياطين هي التي ترسل قدحًا يتألق برقم هاتف محمول .. الشياطين فقط هي التي تدعوك إلى منزلها لتسرق روحك .

مازال الهاتف يحثها على التراجع ..التراجع الذي أصبح نسياً منسياً بعد أن انفتحت البوابة الداخلية . وظهر على عتبتها الرجل الغريب في ملابس أنيقة تختلف تماماً عن ملابسه غير المعتنى بها التي رأتها عليه من قبل

توقفت فور أن تلاقت أعينهما ،وخالطها شعور غريب بالنفور :إن أناقته زائدة، ويشبه إلى حد ما أوغاد السينما الذين لا هم لهم إلا ملاحقة النساء والتغرير بهن.

قدميها أصبحتا تزن أطنانا ..أنفاسها تتلاحق ..وبرغم هذا تتقدم ببطء صوب الرجل الغريب ..لحظات وكانت بداخل بهو المنزل الواسع ..وما إن وقعت عيناها على المكان حتى شهقت من الانبهار..لم تتوقع كل هذا الثراء ..فإن كان المنزل من الخارج يوحي بالثراء .. فهو من الداخل يوحي بالبذخ والإسراف .

البهو قاعة متسعة تلتهم نصف مساحة المنزل .. الأرضية مكسوة برخام ثمين على هيئة رقعة شطرنج .. تتناثر الموائد المذهبة في كل مكان و

فوق كل منها يرقد مجسم لقدح غريب الشكل لو كنا في زمن مختلف لأقسمت أنها تقف بداخل معبد مخصص لإقامة شعائر وطقوس عبادة هذا القدح المتناثرة صوره ومجسماته في كل مكان .

يتوسط المكان نجفة عملاقة ذات ضوء أزرق مريح يمنح للمكان رهبة إضافية .. مع رائحة عطرية نفاذة تتخلل إلى المسام دون جهد يذكر.

لحظات من الصمت سادت بينهما . وهناء تتطلع للمكان بإجلال وإكبار، وراحة نفسية فائقة تجتاحها دون معرفة السبب..مع شعور عارم بأنها كانت هنا ذات يوم .

قطعت هناء الصالة ،و يسيرخلفها ذلك الشخص الغريب بخطوات هادئة وعلى وجهه ابتسامة تقديس .

تقدمت هناء صوب منضدة فاخرة مصنوعة من خشب لامع وحولها ثلاثة عشر مقعداً ، وأمام كل مقعد نقش رسم دقيق لما يشبه شيطان أو حيوان أسطوري .

اختارت هي المقعد الذي على رأس الطاولة ، وجلست عليه في نشوة . وكأنها كانت تمارس الجلوس على هذا المقعد لسنوات ،ثم حرمت من الأمر وعادت إليه .

شعور غامض بأنها هنا في وطنها ،وبأن المكان ليس غريباً عنها .. النقش الذي على المنضدة أمامها مباشرة يمثل شيطاناً ذا قرون وأنياب يلتف زيله حول جسده ويظهر ذيله كحربة موجهة صوب الجالس .. هذا

النقش بالذات أشعرها بحميمية عجيبة .. تكاد تقسم أن المكان مألوف ،ربما كانت هنا في زمن ما أو رأته في وقت سابق .. إنها قطعة من هذا المكان .. شيء ما يقنعها بأن الأمر يتعدى كونه ظاهرة (الديجا فو) الشهيرة .

جانبها شعور الخوف بالكامل وشعرت بطمأنينة واستقرار ،وكأنها عادت لمنزلها الذي غادرته منذ سنوات طويلة ..

ورغم دفقة المشاعر الإيجابية المتصاعدة إلا أن فضول عقلها لم يهدأ، وظل السؤال المستفز يطرق أبواب عقلها في إلحاح :

ماذا تفعل هنا ؟.

وكأن الشخص الغريب يقرأ أفكارها ؛ لذا فإنه توقف على بعد خطوات منها وانحنى وقال :

- أهلاً بك في منزلك يا سيدتي ..لقد وفيت بالوعد وعدت .

لم تكن تشعر بخوف ،ولكنها كانت تشعر بشيء من الضياع ، هي مرتاحة لوجودها بالمكان ولكنها لا تفهم جيداً ما يحدث برغم كونه مألوفاً لها . لذا فإنها تساءلت في حيرة :

- وهل كنت هنا من قبل ؟!..

- روحك لم تغادر المكان ..ولكن جسدك فعل .

- هل أنا بشرية ؟

- جميعنا من البشر .

- إذا لماذا أشعر باختلاف الآن .

- لأن البشر درجات .وأنت من الصفوة ..ستفهمين كل شيء فور ، تتم الطقوس

- أية طقوس ؟!..

- طقوس البعث .

- ومن سيعود ؟!..

- أنت من ستعود لقومها ..فقد آن الأوان لتمنحي الروح الأعظم طفلا جديداً .

- ولكني لا أنجب .

- سيحدث .

- ولكن كيف ؟!..

- ستعلمين كل شيء في الوقت المناسب .

ومع انتهاء حديثه انشقت المنضدة ، وسطع من داخلها ضوء باهر أغشى العيون ، ثم ظهر القدح المتفرد .. القدح المصنوع من مادة غير أرضية كما أخبرها زوجها من قبل .

قدح فخاري متوهج له قاعدة من ذهب ، ومطعم بأحجار كريمة لا يقل ثمن الواحدة منها عن رقم وأمامه سبعة أصفار .. يتألق بداخله سائل فيروزي اللون تتماوج حوله الأبخرة وكأنه يغلي.

اتسعت عينا هناء من الدهشة فور أن وقع بصرها على القدح بالفعل لقد صدق الشخص الغريب .. إن هناك من الأقداح ما يغنيك اقتنائه عن كل أقداح العالم حتى ولو كانت على شكل نصف برتقالة .

(إنها لم تنس بعد قدح الكاشير الذي لم تستطع الحصول).

اقترب منها القدح بهدوء ،وكأن هناك روحاً خفية تدفعه نحوها ..ماج عقلها بالأسئلة ..فمع مرور الوقت تشعر بأنها في كل لحظة تنتمي للمكان أكثر وأكثر.ولكنها لم تحط بكامل الأمر علماً .. الأمر ليس مريباً ولكنه غير مريح .

القدح يخطف بصرها ،ولكن جذوة المعرفة تكوي روحها .

- توقف .

بهت الرجل الغريب من طريقتها ،وقال بصوت متزعج :

- لماذا ؟!

- لابد أن أعلم أولاً ما أنا مقبلة عليه ؟.

- ولكنك تعلمين .

- لا أخفي عليك سراً ..إنني أتوق بالفعل لإنهاء الطقوس ومعانقة القدح ..ولكن عقلي كصفحة بيضاء ..الراحة النفسية لا تروي أي فضول .

- الطقوس هي وسيلتك للتذكر .

- ألا توجد وسيلة أخرى ..

- نعم توجد وسيلة أخرى ..ولكن لماذا ؟

- كي يطمئن قلبي .

- كما تشائين ؟

اقترب منها الشخص العجيب، ووضع يده الناعمة فوق رأسها ..وفي اللحظة التالية أصابها تشنج عنيف، وأخذ جسدها يرتعد فوق المقعد وتقوس ظهرها للحظات قبل أن تهدأ وتبدأ الرحلة .

رحلة مخيفة في أعماق الماضي ..رحلة خارج التاريخ المعروف ...

—

الصوت يتردد في عقلها ناعماً ومسيطراً ..

تقول الأسطورة :

إن هناك ثلاثة عشر شيطاناً هبطوا إلى الأرض، وتزوجوا من بنات البشر وأنجبوا نسلاً من الوحوش .. ذريتهم مازالت تقيم على الأرض وتعيث بها فساداً وجوراً.

أسطورة بشرية فانية مست روح القصة ،ولكنها لم تصل لكبد الحقيقة .

مشاهد مختلفة تتعاقب أمام عينيها .

ثلاثة عشر كائناً يشبهون الرسوم الموجودة حول المنضدة . أشكالهم مخيفة . ولكنها تشعر معها بحميمية . خرجوا من قلب الأرض يحملون هموم عالم كامل لم يرأف بهم أو بأفكارهم .

لماذا يصرون على أن يكونوا معزولين عن مخلوقات الأرض ..لماذا لا يعيشون معاً . إن الأرض واسعة لماذا لا يتشاركونها ؟.

البشر رأوهم على حقيقتهم ،فهربوا منهم وأغلقوا الأبواب في وجوههم . بل وحاربوهم ..

النسل البشري شديد الغرور سريع الانفعال عدو ما يجهله ،ولكنهم لم يكن بنهم أن يبدءوا عهدهم بالدم .

إن أشكالهم مخيفة للبشر . وهذه نقطة الخلاف فليقوموا بإنهائها ..

يستخدمون قدراتهم الفائقة .. يتحولون لأشباه بشر ..الهيكل العام بشري وتميزه الشامة ..علامة الوحش كما كان يطلق عليها السحرة قديماً .

نساء البشر يسقطون في حبائلهم .. يتزوجوهم برغم أن هذه الطقوس الفانية لا تعني شيء ..

ينشأ مجتمع جديد من البشر الذين يجمعون صفات النسلين ..هؤلاء البشر يحملون عدوانية شديدة ,ولا يعيشون أكثر من سبعة أعوام .

الأعوام تمر كشهاب منطلق ..

والمحاولات الفاشلة مستمرة ..فقط سبع سنوات، ويموت بعدها الطفل الهجين .

الثلاثة عشر كائناً أو شيطاناً كما تقول الأسطورة . ليسوا بخالدين ربما دورة عمرهم تفوق البشر عشرات المرات ,ولكنهم يموتون في النهاية .. يتناقصون مع مرور القرون .. شيطان خلف شيطان كان يموت دون أن يحققوا حلمهم .. حتى لم يتبق إلا شيطان واحد, وحلم باهت بالاستمرار..

استعانوا بعلوم البشر ,جربوا مئات الطرق حاولوا آلاف المرات ,وفي النهاية يموت النسل الهجين ..

وفي عصرنا هذا ..عثروا على كاهن بشري ملحد أخبرهم بالوسيلة المثلي.

لابد أن يلتقي ماء البشري بماء الشيطان داخل رحم الأنثى خلال ساعة على الأكثر ولا بد أن يمتزجوا معاً.. وأخبرهم بالنبوءة وبأن حواء الخاصة بهم ولدت على أرض مصر إنها آخر فرصة لنسلهم ..لقد ولدت حواء نتيجة مصادفة وعلاقة يائسة من الشيطان الثالث عشر

حواء التي لا تعرف عن جنسها شيئاً وتحيا حياة بسيطة كبشرية عاديه

ضوء ساطع يغمر عقلها .. ثم مشاهد لها في كافة مراحلها العمرية تتعاقب أمام عينيها ، والشيء المشترك في كل هذه المشاهد هو تلك الاشباح غير المرئية التي تحيط بها وتحميها .

الآن تعرف من أنقذها من حادث السيارة ,ومن داوى جرحها بعد أن مزق الزجاج لحم وجهها ..الآن تعرف لماذا اهتمت بجمع الأقداح .

إن حلمها يتلخص في القدح المعظم .

القدح الذي سيغلب صفات جنسها القوي على صفات الجنس البشري الضعيفة

إنها درة نسلها . حواء التي ستمنح للشيطان الثالث عشر الذرية التي يبحث عنها.والتي ستحمي نسله من الانقراض بعد مئات القرون من الفشل واليأس.

فلاش ضوئي يعمي بصرها ، ثم تتلاشى المشاهد من أمام عينيها فور أن سحب الشخص الغريب ذو الشامة يده من فوق رأسها ..

لا لم يعد الشخص الغريب ..إنه الروح الأعظم ..إنه الثالث عشر.

تقبض على القدح الذي يزداد توهجه ..

القدح بارد برغم أن السائل بداخله يفور ويموج .

تجرعت السائل كله مرةً واحدةً . ثم شعرت بالنشوة ..قبل أن يجتاحها ألم وتصرخ في عنف وهي تشاهد التحولات التي تحدث لجسدها .

***

دوت نغمة التنبيه فاستيقظ السائق الشاب من غفوته ..نظر للساعة بذاكرة مشوشة ثم تذكر كل ما فاته .. لقد مضت الساعة الآن ..عليه الآن أن يدخل البيت ,ويستعجل السيدة كي تغادر ..ربما هو من سينقذها من موقف معقد .

يغادر سيارته التي تركها دائرة .. يعبر البوابة الخارجية ..يقطع الممشى في عدة خطوات واسعة .. يقترب من البوابة الداخلية المفتوحة ، يهم بدق الجرس عندما يسمع صوت الزئير الحيواني وصرخة السيدة .

لا يعرف كيف تيقن من كونها صرختها .

فارت الدماء في عروقه،واندفع داخل المنزل لينقذ السيدة من الخطر المحيط بها ،ثم توقف مذهولاً أمام المشهد المخيف .

غولة ذات شعر كثيف وأنياب حادة تتمرغ بين ذراعي شيطان رجيم ذي قرون ومخالب سوداء،وبين أيديهما قدح متوهج يتناوبان الشرب منه .

تجمد عقله للحظات ،كانت كفيلة كي تنغلق البوابة الداخلية، وتحتجزه داخل المنزل .

المشهد كان محطم للأعصاب . خاصة وأنه لم تسبقه أي مقدمات ..عقله يغلي بداخل رأسه ، يشعر بقبضة عاتية هناك تمزق خلاياه ..

يصرخ في عنف ..يمسك رأسه في ألم ..أعمدة عقله تتهاوى ..

ان الهول الذي يراه لن تحتمله روحه ..إنه ينهار ..يفقد تماسكه يسقط أرضاً والزبد يتساقط من شفتيه ..لقد أصيب بحالة صرعية عنيفة لا يدرك لها سبب .. ولو انتهت بموته لكانت رحمة له .

عاش السائق الشاب في دنيا الألم ، وتلاشت من عقله كل المشاهد وبدا كإنسان يحتضر .. بل هو يحتضر بالفعل .

ومن خلفه تركت الغولة / هناء ذراعي الشيطان، وهي تتحرك بغنج مقزز ، وأخذت تقترب من السائق الشاب الممد كالذبيحة في بطء، وكأنها تمارس رقصة طقسية معقدة .. وهيأتها البشرية تعود من جديد لتكسو جسدها ..والشيطان نفسه يكتسب هيئة الشخص الغريب .

القدح في يديها يتوهج كعادته ,ولكنه خالي من أي مشروب .

تقترب من السائق الشاب في هدوء ,وبكل بساطة تقوم بتمزيق عنقه بأسنانها وتترك القدح ليمتلئ من دمائه الحارة ..قبل.. أن تقدم القدح للشخص الغريب الذي يجرعه دفعة واحدة .قبل أن يعيده لها ..لتملئه بمزيد من الدماء ، قبل أن تنقض على جثة السائق الشاب وتشرع في التهامها.

***

عندما عادت هناء لمنزلها في ذلك اليوم بعد رحلة قنص موفقة قامت بها، وراح ضحيتها فتاة في عمر الزهور.. والتي مازالت أشلاؤها تغمر

أرض تلك الحديقة العامة ، بعد أن فقدت جزءاً كبير من أطرافها ولحمها الطري .

كان زوجها هناك،وكان غاضباً لتأخرها..ولكنها لم تكن تبالي به ، إنها تمنع نفسها من الإجهاز عليه بصعوبة..إن وقته لم يحن بعد .عليه أن يتم مهمته ليلتقي مائه مع ماء الشيطان .

وبالفعل أتم مهمته ، وقبل مرور الساعة ، كما تقتضي الطقوس ..

***

وبعد عدة أشهر،تمددت هناء فوق الفراش مستمتعة ..إنها تشعر بوليدها المنتظر يتحرك في أحشائها ..إنه شعور مذهل ولن يعكر صفوه أي شيء آخر.

إنها تعرف أنه سيأتي خلال ثلاث ساعات .. بعد فترة حمل لم تتعدى الستة أشهر..إنه مخلوق مميز..آدم هذا الجنس المنقرض ..

إنها تعرف أنه سيحتاج لرعاية خاصة ..وتعرف أنه سيكون جائعاً ..ووجبته المثالية ستكون جاهزةً.

نظرت لزوجها الغاضب المدد بجوارها على الفراش والنوم يجافيه ، وقالت في هدوء :

- ستنتهي معاناتك معي قريباً.

لم يحبها زوجها..لابد وأنه ينعتها بالجنون الآن..الحمل بالتأكيد يصيب الناس بالجنون .

دقائق ثم علا غطيطه ، فأخرجت قدحها المميز من حقيبتها الجلدية ، و جرعت منه جرعةً جديدةً من الدماء ،ثم نظرت نحو زوجها بجشع ، والقدح في يدها يطلب المزيد من الدماء، ومعدتها تتلوى من أجل المزيد من اللحم الطازج .



تمارا

(١)

حقيقة مؤكدة :

- لا يمكن أن تنام آمناً، وهناك قط يكرهك يعيش تحت سقف نفس المنزل .

- الأرق خليل الكراهية

***

من لا يحب القطط لا تتوقع يوماً أن يحب الكلاب، أو أي حيوان منزلي آخر ، فمن يخرج من مصيدة حب القطط لن يدخل مصيدة أخرى أبداً.. فالقطط تتمتع بالجمال والدلال والخفة .. إنها أحد أجمل مخلوقات المملكة الحيوانية ولو لم تستأثر عليك بسحرها فلن يستطيع حيوان آخر أن يفعل .

وسمير لم يكن يرى أي من هذا الكلام أبداً .. إنه يرى الحيوانات والقطط تحديداً مخلوقات شريرة ذات فراء يثير الاشمئزاز . تدعي حب مقتنيها لتحصل على طعام مجاني ومسكن نظيف ..

إنه لا يتصور وجود الحيوانات داخل المنزل بأي حال من الأحوال .. الحيوانات بالنسبة له إما أن تكون داخل أقفاص أو هناك في الغابة، حيث تحظى بمكانها التي تستحقها ويلتهم القوي منها الضعيف .. لا بداخل المنزل تستجدي عطف البشر

الحيوانات في المنزل مغناطيس جالب للأمراض .. هذا ما يؤمن به سمير وما سمعه من جده مراراً وتكراراً . ويبدو أن كراهية هذه الحيوانات جاءت له حبيبا عبر موروثات جده .. جده الذي مر بتجربة الواحد والعشرين حقنة في البطن نتيجة لعقر أحد الكلاب الضالة له ..

سمير لم يمر بتجربة مماثلة لتجربة جده . ولكنه يحمل نفس القدر من الكراهية . وربما أكثر لهذه الحيوانات العجماء

إنه يكره الحيوانات بكافة أنواعها .. يكره رائحتها ووقاحتها وفضلاتها المتناثرة المتناثرة في كل مكان ..يكره نظراتها الزجاجية التي لا توحي بخير او امل .. يكره حماسها الزائد و تطفلها الغير مبرر ..

والحيوانات نفسها كانت تستشعر ذلك منه، فكانت تعامله بالمثل ولم تكن ودودة معه في يوم من الأيام .. الكراهية كانت كأس آثم يدور بينهما .

لبنى زوجة سمير تختلف عنه في هذه النقطة ، بل هي على النقيض له تماماً في مسألة اهتمامها بالحيوانات ،وسمير لم يحب هذه النقطة في زوجته .. لم يحبها ابداً . وان كانت ليست سبباً حيوياً لانفصالهم وطلاقهم ..رغم كونها فكرة جديرة بالاهتمام .

لبنى تعشق كل الحيوانات المنزلية .. من القطط والكلاب إلى طيور الزينة والأسماك .. وقناتها المفضلة هي ناشيونال جيوجرافيك .. ربما تعشقها أكثر من المسلسلات التركية ثقيلة الظل التي سممت حياة المصريين .

إن الزواج يكشف دائما للرجل أن اختياره كان خاطئا من البداية .. الحياة بعد الزواج لم تكن مثل نهاية الفيلم القديم الذي تخيله .. هناء ورخاء ودفء دائم .. أنت تعيش مع نسخة مشوهة من حلمك القديم - يرقد بجوارك إنسان فقد كل تحفظه، ولم يعد يعنى بالتفاصيل الصغيرة التي كانت سبب تميزه .. إنها زوجتك فقط، وليست الحلم الذي أرق لياليك وصدع القمر في لياليه الداقئة _

فبعد الزواج يشعر الزوج بأنه خُدِع . ومع مرور الوقت يصير هذا الإحساس يقين في أنه خُدِع . فيحاول التأقلم ولكنه يفشل دائما ..

والجزء الذي يمقته سمير في الزواج -أنك يجب أن تتقبل عيوب شريك حياتك .. العيوب التي تظهر جلياً الآن بعد أن أزالت الأيام والعشرة الغمامة السوداء التي كانت تعصب عينيك .. أنت الآن في عرض مسرحي مجسم .. بوصلتك الشخصية ترصد العيوب كرادار فائق .. العيوب التي يجب أن تتعايش معها وتتغاضى عنها ..

أن زوجته لبنى تتعامل مع الحيوانات بكل أريحية ..فلا تانف أن تداعب قطتها المفضلة بيد ..ثم تلتهم بنفس اليد جزء من الشطيرة دون أن تعني بغسلها او تعقيمها . وسمير كاد يموت عندما يراها تفعل ذلك . وكثيراً ما كان يرفض تناول الطعام لو شك ولو لحظة في أنها لمست قطتها السخيفة أثناء إعداده . أصبحت كل مشتقات الديتول في المنزل . من الديتول المركز إلى صابون اليد الصلب والسائل .

الحياة مع هذا الوضع تتحول لجحيم حقيقي ..إن ما يؤرقه أكثر من التقرز هو الأمراض ..إنها ليست حامل ولكن داء القطط يصيب الاصحاء أيضاً . وربما يُعدي المقربين منهم .

إن الحيوانات في المنزل قنبلة موقوتة تنتظر الانفجار وقطة زوجته .قطة سخيفة والأسخف اسمها..

" تمارا " . أي اسم هذا .!!

الأفضل أن تطلق على كتلة الفراء هذه سماجة أو سخافة .

تمارا هذه من نوع القطط المدللة ثقيلة الظل ..التي لا تفعل أي شيء إلا أن تلتهم الطعام وتنام . وتصر على التمسح في أقدام الجميع بفرائها السمج الممتلئ دون شك بالبراغيث . البراغيث التي نقلت الطاعون في العصور القديمة ، ولا مانع من أن تنقله الآن.

لا يعرف إن كان نوعها شيرازي أو سيامي او جن أزرق .إنها قطة بكامل سخافتها وثقل ظلها وأرواحها السبعة .

لم تكن تمارا قطة زوجته المنزلية الأولى ..لكنها القطة التي لم يستطع التخلص منها بعد رغم العديد من محاولاته المحمومة ، ففي كل مرة يتركها خارج المنزل تعود .وكأن هناك مغناطيس يجذبها إلى المنزل . وكأن بعد المسافة لا يعنيها ..

إنه لم يجرؤ بعد على وضع السم لها في الطعام ..أو إلقائها في النيل .. ولكنه حتماً سيفعل .

***

إنه لا يكره زوجته برغم أنه لم يعد يحبها .. إنها زوجته وكفى دون أي مشاعر أخرى، وهو يكره هوايتها .

لذا فهو يمارس نشاطاً محموماً في التخلص من حيواناتها المدللة دون أن يظهر أنه طرف في هذه اللعبة الجهنمية .. كي لا يثير غضبها .. فغضبها يحيل المنزل جحيماً ..كوجود تمارا تماماً .

وهو لن يحيا في هذا الجحيم إلى الأبد .

لماذا لم تكتف بحوض الأسماك، وقفص طيور الزينة لماذا ؟!

سمير لم يكن يفعل هذا كنوع من السادية أو عشق الشر . ولكنه لا يطيق تلك الحيوانات كثيفة الفراء ..من حقه أن ينعم بالهدوء في منزله ..الهدوء الذي لا تحققه هذه اللعنات ذات الأقدام الأربع .

تخيل أن تستيقظ من النوم وكتلة من الفراء والرائحة الخانقة تكتم أنفاسك .. تخيل أن تلهم طعامك وفي منتصف الوجبة تجد شعر قط .تخيل أن تخطو بحذائك الجديد فوق مخلفات حيوانية لزجة ذات رائحة عضوية قاتلة .

إن المنزل يعني الأمن ..العفوية .. أن تتحرك في أرجائه دون توقع أي شرك أو مفاجآت غير سارة ..وجود حيوان غريب في المنزل يفسد كل هذا ..بل ويفقد المنزل معناه ..

وتمارا تصر على إثارة غضبه والبقاء في المنزل رغم محاولاته لطردها ..تمارا يجب أن تلحق بسابقيها .. ويجب أن يتم الأمر بحنكة ومهارة كي

لا يظهر طرفاً في اختفائها فزوجته متعلقة بها إلى حد الهوس .. ولن تغفر له أبداً فعلته هذه.كما أن أمر اختفاء حيواناتها المنزلية أصبح مريباً .

يحتاج الأمر إلى بعض الحكمة .. لإتمام الجريمة الكاملة .

والقتل لم يعد شيئاً سيئاً في نظره.. بل هو الخلاص من كتلة الفراء التي تؤرق لياليه..لا يوجد حل بديل .

سيقتل تمارا .

—

الحيوانات تمتلك نوعاً ما من الذكاء .وكل ذكاء نوع من الشر فالخير رد فعل عفوي ..الشر يحتاج لإعمال العقل .وتمارا تمتلك كل خبث القطط مع لمسه من ذكاء بشري مخيف .

يعتقد سمير أن تمارا تضمر له الشر .. بل هو يؤمن بذلك ..إنهم يتبادلان الكراهية دون توقف .. ربما هي تشتهي قتله كما يعتقد .

وإلا فلماذا استيقظ ووجدها جاثمة على أنفاسه . في ذلك اليوم الكئيب الذي نسي أن يغلق فيه باب غرفة النوم خلفه ؟.

لا يوجد تفسير آخر.

زوجته تسخر منه كلما أخبرها أن هذه القطة تكرهه ..

إن تمارا دائما ما تداوم على استفزازه فهي تتهادى أمامه بطريقة تثير الغيظ .. تدعي حبها له خاصة في وجود زوجته .و تتمسح في قدميه لتمنحه ذلك الشعور الفظيع من أن مجموعة من أسراب النمل تتسلق ساقيه ..بل وفي إحدى المرات وفي غياب زوجته أحضرت بقايا فأر وأخذت تلتهمه أمام عينيه .حتى أنه أفرغ معدته عدة مرات وحاول اقتناصها بعصا المكنسة المعدنية .. ولكنها فرت منه ..

بعد أيام من الاستفزاز .. قرر أن ينهي الأمر بالطريقة الصعبة فوضع لها السم في الطعام .. وظل ضميره يؤرقه طوال اليوم فهي روح برغم كل شيء.

المخيف أن تلك الخبيثة رفضت أن تأكل هذا الطعام ، وإمعاناً في تعذيبه دفعت بقط شوارع لالتهام الطعام بدلا منها. لتفترش جثته صالة المنزل ..

احتاج سمير بالطبع لأعصاب أسطورية كي يتخلص من الطعام والجثة في القمامة ؛ ليجد في اليوم التالي قط الجيران ..ميت هو الآخر..

لقد قتل روح بريئة أخرى وحمل ذنبها دون جدوى .

لم يعرف معنى الرسالة .. التي تحاول القطة إيصالها له ..

ومن هذا اليوم بدأت القطة تتحول وتصبح أكثر عدوانية ووقاحة ..

(٢)

بعد عدة أيام من حادثة تسمم القطط وبعد منتصف الليل .. استيقظ سمير على احساس غامض غير مبرر . وعندما عجز عن تفسير الأمر.. قرر أن يمارس نشاطاً محبباً إليه وهو إفراغ مثانته.

المنزل هادئ ولا يقطع هذا الهدوء إلا غطيط زوجته المزعج ..الذي يجعلها تبدو كقطار من لحم ..لا يكف عن الهدير..

عبر صوب الحمام في بطء . وهو يحاذر أن يصطدم بقطع الأثاث المتناثرة في كل مكان . وأتم مهمته بسرعة ، ثم خرج وصوت السيفون يتردد في خلفية عقله كشلال عارم يغرق كل شيء . وأثناء مروره بغرفة المكتب لمح ضوء الأباجورة مضاءة .. إنه لا يتذكر أنه تركها مضاءة ..

ربما فعل .

كان مشوشاً إلى حد كبير فقرر أن يطفئها ثم يخلد إلى النوم . غير اتجاه رجوعه صوب غرفة المكتب وعندما دلف إلى الغرفة الهادئة .. لمحها هناك فتسمر في مكانه من المفاجأة.

تمارا كانت هناك تجلس فوق مجموعة من أوراقه الهامة . تقبع وكأنها على وشك التبرز .. بل هي تتبرز بالفعل .. تنظر له في تحدي ..ترفع إحدى ساقيها ثم تخرج فضلاتها الكريهة اللزجة فوق أوراقه الهامة والتي يجب أن يسلمها لرئيسه في العمل في الصباح الباكر

ظهرت شياطين الغضب على وجهه . إنه يستطيع تحمل العبث في كل شيء إلا عمله .. إن يمسه أسخف شخص في الوجود يمكن أن تقابله ..إنه لن يتورع عن تعنيفه أمام جميع زملائه والتنكيل به .. قبل أن يخصم من راتبه ما يتسبب في أزمة مالية لن ترحمه .

لذا وفي اللحظة التالية . كان ذيل تمارا كثيف الشعر في قبضته .ولا اعتقد أنه فكر مرتين وهو يضرب رأسها في الحائط بعنف ..

طراخ ..

الأن فقدتي إحدى أرواحك السبعة ..

طراخ ..

وهذه الثانية ...

طراخ ..والثالثة..

والرابعة..

الخامسة ..

التاسعة .

روحين إضافيتين . لو كانت خارجة من أساطير الغرب . فالقطط هناك تمتلك تسعة أرواح

وأخيراً وقف سمير يلهث و العرق البارد يغمر جبهته . وجثة القطة في يده . ودمائها تغرق الحائط في مشهد بشع صدمه هو شخصياً.. ما

سد الأمر كثيراً أن زوجته كانت تقف أمامه وعلى وجهها ملامح صدمة منية .. بقميص نوم منزلي مترهل ،وشعرها يشبه غابة من القطن مله يلعن اليوم الذي قرر فيه الاقتران بها .

ل يستطع أن يفسر لها الأمر..

ل يستطع أن يقنعها بشيء طوال فترة حزمها لحقيبتها ..

هر نفسه مل الحديث ،وتمنى لو كان لديها ذيل يحمله منه ،ويهشم رأسها على الحائط .

تراااااك

وانغلق الباب خلفها ..

فلتذهبي إلى الجحيم أنت وكل حيواناتك الأليفة ..أنت من أصررت على وجودها وعلى إفساد كل شيء .

لا أحد يمكن أن يفسر الهستيريا التي أصابته في اللحظات التالية .. فقد انتقلت كراهية تمارا إلى كل شيء .. حوض السمك تهشم في ضربة وحدة ..وفزعت الأسماك التي كانت داخله . وهي تنتفض في هلع فوق الأرضية الباردة تستجدي الأكسجين . وكمن يصعق بالكهرباء ظلت تنتفض حتى سكنت تماما .

قفص الطيور تحول لفخ محكم خاصة عندما وضعه في المغطس وفتح الماء عليه ليغرق عصفوري الكناريا المصعوقين مما يحدث ..

ساعة كاملة كان يدور في البيت كالممسوس ..

وأخيرا قرر أن يتخلص من جثة تمارا المشئومة .وبعيد كتابة كل الأوراق التي لوثتها الملعونة بالروث ..

وعندما دلف إلى غرفة مكتبه مجدداً . وقف شعر جسده ..

لم تكن جثة القطة هناك ..

لم يكن هناك فضلات فوق أوراقه المهمة ..

فقط كانت هناك الدماء التي لوثت الحائط .. الدماء التي شكلت وجها مشوها لقط . أو هو خياله المريض الذي هيأ له هذا الأمر.

وعندما عاد لغرفة النوم .. كانت تمارا هناك .. فوق فراشه .. سليمة كقطعة نقدية جديدة ..ولكن جسدها كله اكتسى بلون رمادي كالح كالأشباح..

كانت هناك .

وكانت تنتظره ..

***

في تلك الليلة لم يستطع سمير أن يواجه القطة . فعندما كشرت له عن أنيابها أغلق الباب بسرعة . وتوجه نحو الصالة . وبجوار جثث الأسماك النافقة تمدد فوق الأرض الباردة وراح في سبات عميق حتى ظهيرة اليوم التالي .

وعندما استيقظ بعد نوم قلق مليء بالكوابيس .والتي كانت تمارا بطلتها وجدها فوق صدره .. منتفشة الفراء متوترة الجسد .. مشرعة الذيل نحو السماء ..لم يستطع أن يتخذ أي رد فعل لدرء هجومها . فقد كانت اللعينة سريعة .وهي تمزق بشرة وجهه بمخالبها الحادة التي مزقت بها الفأر سابقاً .. قبل أن تهرع لتختفي داخل المطبخ ..

شعر مع الضربة بألم عنيف يسري في كيانه . وبخوف عاتي يجتاح جسده .. لقد تحول الأمر لصراع صريح .. لم تعد تمارا تخفي كراهيتها ولا ذكاءها المبالغ فيه .. إنها ليست قطة طبيعية دون شك . وعند هذه الفكرة شعر بعرق بارد يغمر عموده الفقري . وعندما نظر لوجهه في المرآة تأكد أن القطة قد أصابته إصابة عنيفة غائرة .عند شفتاها ستترك أثراً مشوهاً .. لقد فقد وداعة وجهه إلى الأبد .

العصارة تتصاعد لمعدته .. الغضب من جديد يغشي عيناه .. وجهه الممزق الذي تسيل منه الدماء يؤجج الوضع . وكالمجنون انطلق صوب المطبخ ليبحث عن تمارا .. لم يترك مكان لم يبحث فيه .. قلب كل شيء رأساً على عقب ..بحث في كافة الغرف ولكنها كانت قد تلاشت وكأنها لم تكن ...

صرخ سمير في عنف .. حطم الأطباق الخزفية ..قلب الخزانة على جنبها لتهشم بداخلها كل الأكواب والآنية الزجاجية .. قبل أن يهدأ أخيراً ..

صنع ضمادة مؤقتة لوجهه . ثم توجه صوب طوارئ المستشفى القريب . وعندما تلقى الإسعافات اللازمة وحقنة "التتانوس" . قرر أن

يجلس على المقهى قليلاً .. لم يأبه لعمله ولا لمديره ولا لزوجته التي غادرت المنزل في ساعات الصباح الأولى .

لقد فسدت حياته بالكامل .. فسدت ولن يجدي معها أي إصلاح .

صورة تمارا كانت تحتل كيانه ..

كان يفكر وعقله ينفث أدخنة أكثر من أدخنة الأرجيلة التي يدخنها. ماذا يفعل مع تلك القطة أكثر من أنه قتلها .. ما هو الشيء الذي له تأثير أكثر من الموت ؟!..

خبت نيران حجر الأرجيلة فطلب آخر..

إن حياته تهاوى بسبب قطة بديلة .. إنه لن يعود لطبيعته إلا لو اختفى كل أثر لها من الوجود ..ولكن ماذا يفعل أكثر .. لقد ماتت .. ماتت ..

(٣)

عاد إلى المنزل يحمل بعض الشطائر.. رنين الهاتف لا يتوقف ..لابد وأن رئيسه في العمل سيجن ..إن تلك الدراسة التي أعدها في الأمس، والتي لم تصل لرئيسه ستجعل اجتماع الوزير يفشل ..إنها البند الوحيد على جدول الأعمال لهذا اليوم ، ولكن ليحترقوا جميعا فلا شيء يهم أكثر من التخلص من تمارا ..

فصل سمير مقبس الهاتف ليتحول بعدها إلى جثة هامدة ويكف عن الرنين ، ثم جلس يتناول الشطائر عندما لمح تمارا على بعد عدة أمتار منه وسط الزجاج المهشم تلهم جثث الأسماك النافقة ، واحدة تلو الأخرى وعلى مرة واحدة مهما كان حجم السمكة .

هرب الدم من وجهه وسقطت من يديه لفة الشطائر ..إن هذه القطة ليست طبيعية .. ليست طبيعية أبداً .. إنها شيطانة وحظه السيئ جعله يقع في محيط كراهيتها ..نظر نحوها في خوف فبادلته النظرات المتحدية .. إن عقله عاجز عن الوسيلة المثلى للتعامل معها ..لقد قتلها ..قتلها ..

صرخ سمير في القطة ..نعتها بأقذع الألفاظ .. قذفها بلفة الشطائر التي لم تفتح منها إلا شطيرة واحدة .

تفادت القطة اللفافة المندفعة نحوها ،ثم وقفت أمامه منتفشة الشعر، وقد تحولت عيناها للون الأحمر القاني، وبرزت أنيابها كنصال حادة في مواجهته ثم هاجمته .

الصراع كان محسوماً من اللحظة الأولى ..لم تترك له تمارا لحظة واحدة ليتمكن منها .. وتخضب جسده في مواضع كثيرة بالدماء . ولم تتركه إلا كدمية ممزقه فوق أرضية الصالة ..

دقائق مرت عليه وهو يبكي ويتألم ..

دقائق أكثر مرت قبل أن يستطع الجلوس وسط بحيرة متخثرة من دمائه، وعندما استطاع النطق لم ينبس إلا بكلمة واحدة :

- الرحمة .

ساعتها فقط عادت القطة لهيئتها الطبيعية ، وتوارت أنيابها ومخالبها . وعلى وجهها ظهر ما يشبه الابتسامة الساخرة .

لقد هزمته تمارا، وفرضت وجودها في المنزل .. بل على حياته كاملة .

إنه الآن ملك لها .. تفعل به ما تشاء .

وبعد عدة أيام عادت زوجته إلى المنزل ، رجعت وحدها بعد أن أقنعتها أمها الطاعنة في السن ، والتي تقدس الزوج والزواج أنها تبالغ ، وأن حياة قط لا تساوي حياتها واستقرارها . وأن لكل رجل هفواته التي يجب ألا تتوقف عندها النساء كي يمضي قطار الحياة ..كفاها تسلط وأفكار سخيفة فالمرأة الجيدة لا تخرب بيتها لسبب تافه كقطة.

لقد دخلت امرأة الجنة في قطة .. فكيف لا تتحول الحياة لجحيم بسبب قطة .. ثم من قال أن القطة سبب تافه .

لم تكن مقتنعة بحديث أمها، ولكنها لم تستطيع أن تعصي لها أمراً مع كبر سنها ومرضها .. كما أنها اشتاقت لزوجها الحنون برغم فعلته الشنيعة .

عادت متلهفة أكثر لا تأبه بما سيقول زوجها سمير ؛لأنها رجعت وحدها كما غادرت وحدها .. دون أن يسلك الأمر دروبه المعتادة والمعقدة من وسطاء وجلسات عائلية ووعود لا يتحقق غالبيتها في النهاية .. تنتهي بليلة حارة من ممارسة الحب المفتعل ..

عادت متلهفة بعد أن تصاعد قلقها على زوجها وشريك حياتها بعد أن انقطعت أخباره تماما من اليوم التالي الذي غادرت فيه .. فهو لم يذهب لعمله منذ أسبوع كامل .. ولم يجب على اتصالاتها الهاتفية المتكررة أو اتصالات أي من زملائه في العمل ، حتى عندما ذهب زميله فريد للاطمئنان عليه في شقته .. كلت يده من طرق الباب دون جدوى .. البواب لا يعرف إن كان غادر البناية أم لا؛ لأن عقله ليس دفتراً .. كما يعتقد أنه لاشيء يقلق طالما لا يوجد روائح خبيثة تخرج من الشقة لتنبئ عن حدوث مكروه ..

الخلاصة لا أحد يعرف مكانه . لا أحد يعرف أين ذهب ،وكأنه لم يكن أو تلاشى من الوجود .

لابد أن مكروه أصابه .. إنه لا يستطيع فعل أي شيء بدونها .. استبعدت فكرة الانتحار :لأن قراراً كهذا لا يتماشى مع شخصية زوجها الضعيفة ..برغم رومانسيته كإجراء أخير يرضي طموحها كأنثى .

أن يضحي أحد من أجلك بحياته .. يا لها من فكرة .

ضاعفت هذه الفكرة من قلقها ، وفي داخلها دعت الله ألا يكون قد أصابه مكروه ..إنها مازالت تحبه ولكنها كانت مصدومة من شناعة فعلته ..

لقد هشم رأس القطة على الحائط دون رحمة ، ونظرة عينيه كانت تدل على إرادة فعل عاتية ..

إنه قتل مع سبق الإصرار.

هزت رأسها لتنفض كل هذه الأفكار من رأسها ،لقد عادت لتفتح صفحة جديدة مع زوجها بلا قطط ، قبل أن تولج المفتاح في رتاج الباب الذي استجاب على الفور ، لينهي جزءاً من معاناتها ، خاصة وأنها صعدت الأدوار الثلاثة على قدميها لأنه لا يوجد مصعد في البناية..

صورة زوجها بمنامته المتسخة وذقنه غير الحليقة تحتل كيانها .. هي صورة تبعث على الشفقة ، ولكنها ستريحها لو وجدته بالداخل على هذه الحالة ، فقد ترك الكون كله لأنه أغضبها .

أهم شيء ألا يكون كالرجال الأوغاد الآخرين وتجده يتناول البيرة ،أو بصحبته سيدة أخرى تشاركه فراشها ..

اقلقها الخاطر الأخير فاندفعت داخل المنزل دون أن تغلق الباب ، وكأنها تريد أن تضبط زوجها بالجرم المشهود. وقد تعمقت الفكرة بداخلها .

قطعت الرواق القصير المفضي إلى الصالة. وهي ترسم على وجهها ملامح التجهم ،وكأن الأمر تحول من مجرد فكرة إلى يقين تام .. إنه يخونها .

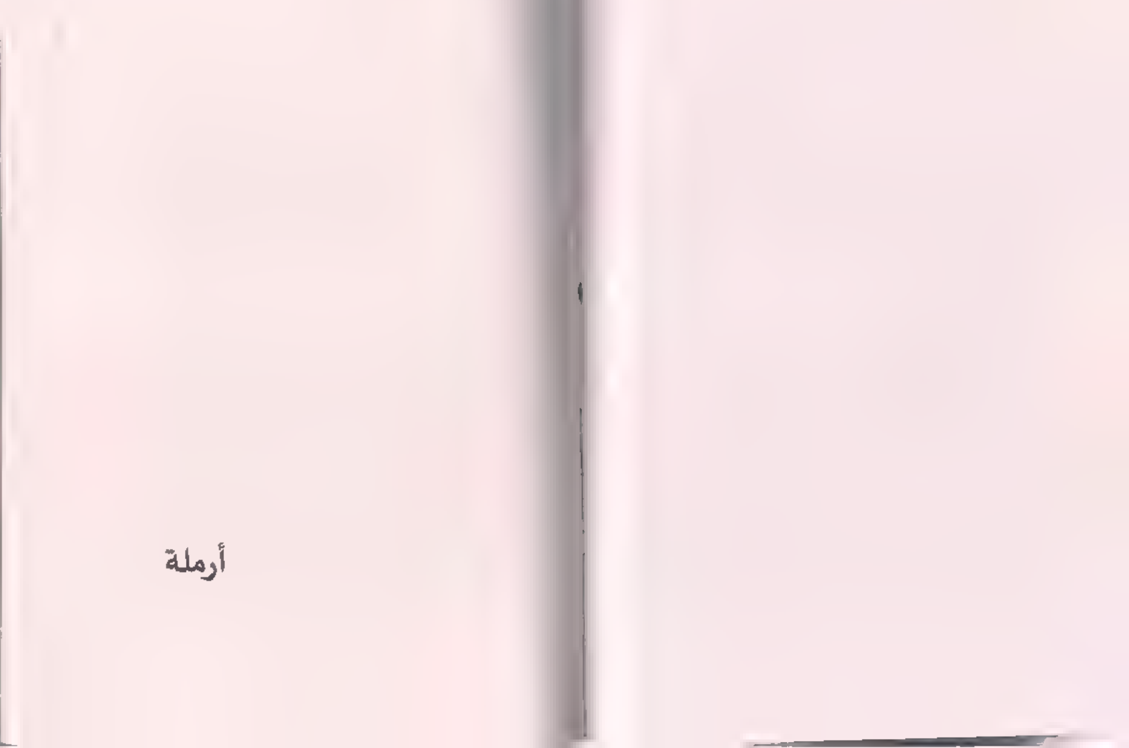
وهناك في منتصف الصالة ، ووسط زجاج حوض السمك المهشم .. رأت المشهد الذي لن يغادرعقلها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة .

ففوق السجادة الإيرانية المقلدة التي تغطي الأرضية الباردة ، والتي تناثرت عليها القاذورات ذات الرائحة الشنيعة الصادمة ، والتي لا تعرف إن كانت فضلات بشرية جافة أم حيوانية ، رأت زوجها سمير الذي نحل بشدة ، يحبوعلى أربع كحيوان مروض بمنامة متسخة غارقة في دماء جافة وحديثة ..بجواره تمارا ، وقد انهمكا سوياً في التهام الطعام من نفس الإناء دون أن يشعرا بدخولها .. الكارثة ليست في التهامه الطعام من إناء واحد مع قطة بدينة ..الكارثة ما كانا يلتهمانه في جشع ..

فقد كانت وجبتهم الرئيسية جثة فأر منتفخ ممزق الأحشاء .

ولم تكن صرختها .. نهاية القصة .

فقد استدارت تمارا بوجهها الغارق في الدماء ، ورمقتها بنظرة غاضبة .. تحمل ألف معنى ..



أرملة

(١)

يقولون :

- إن الأرملة هي أكثر سيدة تشعر بعذاب الوحدة؛ لأنها تتوقت معنى يكون بجوارها رجل تعشقه ويمنحها الأمان .وهذه الأرملة قد تمد المستحيل لتنعم بنفس الشعور الدافئ ولو ليلة واحدة إضافية .

- وهذا كلام حقيقي فعلاً ولكن ماذا عن الثمن ؟!..

الليل بالنسبة لأسماء جحيم مقيم .. فناهيك عن كونها أرملة ، هي أرملة بلا أطفال ، فكيف لها أن تنجب وقد مات زوجها بعد شهرين فقط من الزواج ، والدورة الشهرية قد هاجمتها منذ عدة أيام .لم يتسن لها ولزوجها الفرصة ليحققوا أي حلم من أحلامهم المشتركة لقد دفنت أسماء أطفالها المتوقعين مع زوجها في لحد واحد ..

لا تعرف أسماء حقاً إن كانت هي حظه السيئ أم هو حظها السيئ .

إن قصص الحب التي تنتهي بموت أحد طرفيها هي أكثر قصص الحب بؤساً في التاريخ .

المشكلة الكبرى ..أن زوجها الراحل منحها خلال الشهرين اللذين قضياهما سوياً ما جعلها تحتسب عمرها السابق عدم .. لقد كان حنوناً ..باسماً .. متحمساً لكل ما تفعله .. لقد منحها ما تصبو إليه كل

أنثى مقبلة على حياة جديدة من سعادة وأمل وتفاؤل وحب ..قبل أن يغادرها إلى الأبد ودون سابق إنذار.

لقد منحها ما غير في شخصيتها، وفي تفكيرها وفي حياتها المقبلة .. لقد بنت معه قصوراً من أحلام لا يمكن أن تقام إلا بتكاتفهما معاً .. لقد قسموا ثمرة السعادة بينهما فلن يكتمل أحدهما إلا بوجود الآخر.

حقق كل أحلامها القريبة، ثم تركها وذهب .. طفلة لا تعرف من الطريق إلا العنوان .. ولا يوجد مرشد ليقودها إلى وجهتها .. لقد استيقظت من النوم لتجده بجوارها جثة هامدة ، بعد ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة قضياها سوياً وحتى الفجر برغم أنه يخرج لعمله في السادسة صباحاً .لقد كان يودعها ولكنها لم تفهم ولم تشعر. فقد خدرتها الأحلام .

إن شعورها بفقده كان أصعب عليها من استيقاظها وجثته بجوارها ..الآن هي تموت لأنه ليس بجوارها .. تستجدي من ملابسه وعطوره إحساسها المفقود دون جدوى .. فأين دفء ذراعيه وأين بسمته العذبة؟!.

إنها تستطيع التغلب على نداء الجسد برغم توقها الشديد ، ولكن ماذا عن نداء الروح ؟.. ذلك الإحساس بالفقد يصنع بداخلها شرخاً لا يندمل .. شرخاً يطفح بالألم والاحتياج إليه هو.. وهو فقط .

إنها لا تتصور وجود شخص آخر بجوارها .. ولا تريد .. لقد أصابها حديث والدتها عن أنه من الجيد كونه تركها بلا أطفال بكثير من التوتر.

من قال أنها ستتزوج أخر بهذه البساطة ؟!.. إن قلبها سد منيع أكد من وجود الأطفال .

إن ما تحتاج إليه .. هو فقط .. ولكن كيف ؟!..

غادرت فراشها والحنين إليه يحطم أعصابها .. ويصيبها بأرق شديد ..توجهت صوب غرفة مكتبه .. الغرفة المتشبعة بوجوده السابق ..وأخذت تقلب في محتوياتها بحثاً عن شيء مجهول لا تدري كنهه..

الحنين وهم قاتل ، وأمل مخدر..

وقعت عيناها على صورته وهو في الجامعة مفعم بالأمل والسعادة ،فانقضت عليها تحتضنها وتقبلها، وذرفت من عينيها دموعاً من حمم ملتهبة، وهي تتذكر مزاحها معه حول ذلك القميص المشجر العجيب الذي كان يرتديه، والذي كان مميزاً جداً لتلك الفترة من الثمانينيات

الدمع يغلبها فتجلس على مقعده .. المقعد الذي لن يستخدمه مرة أخرى .. تغالب دموعها بصعوبة ،وهي تتأمل مكتبته العامرة بالكتب قبل أن تعود لتبكي بمرارة وهي تردد في ضراعة :

- أين أنت يا نبيل ؟!.

لم يجبها إلا صدى صوتها ..فركنت إلى البكاء والنحيب .

مسحت عينيها المكتبة في صمت ، وهي تتأمل كتبه المعتنى بها جيداً .. كان زوجها يحب القراءة كثيراً ، وكانت هي من عينة الزوجات النادرات

الأسطوريات، والتي كانت تبادله نفس الاهتمام ، وإن كانت ميالة أكثر إلى الروايات الرومانسية ..

إن أكثر شخص يشعر بمحنة القارئ هو قارئ مثله ،وبرغم ذلك كانت تغير جداً من الوقت الذي يقضيه بين صفحاتها .. برغم أنها تشهد له بأنه لم يقصر معها لحظة واحدة .. إنها تدرك حقيقة علاقة القارئ بالكتاب ،والتي تتفوق على كل أنواع الإدمان .

سحبتها الذكريات ورائحة عطره التي لم تغادر الغرفة بعد ..فعادت لتتذكر حديث زوجها الراحل عن عشقه للكتب، وكيف أنه عندما تضيق به الدنيا .. كان يهرب إلى رحاب الكتب .. القراءة كانت تنقي روحه وتهدئ أعصابه ..وتمنحه أمل لا ينتهي ،ومن يأسها قررت أن تجرب وصفته .

ستجرب أن تقرأ كتاب لتقطع به الليل ، فهذه الليلة لا يبدو أنها ستنتهي ببساطة .

أخذت عيناها المنهكتان تمسحان المكتبة ، وقلبها يتفطر في لوعة ،ولكنها لم تترك دموعها لتغالبها هذه المرة ،واستمرت في تصفح العناوين ..

كتب في كل شيء .. إن زوجها الراحل لم يترك مجالاً لم يقرأ فيه .. الشعر ،الأدب ،الخوارق ،الماورائيات ،الأديان ،التكنولوجيا ،العلوم ..لقد كان غول قراءة كما كان يحب أن يتحدث عن نفسه ، وفي النهاية

وقع بصرها على الكتاب الذي لفت انتباهها بشدة وداعب أحلامها على الفور ..

تحضير الأرواح ..

وسرت في جسدها رعشة مخيفة .

يا لها من فكرة ..يالها من فكرة .

تناولت الكتاب ثم جلست على المكتب، وأخذت تتصفحه في انبهار.ولم تنتبه إلا والشمس تداعب وجهها المرهق عبر زجاج النافذة الشفاف..لقد مضى الليل منها وهي تتصفح الكتاب .

وبداخلها بدأت بذرة أمل تنمو على استحياء .

***

هدير هي صديقة أسماء المقربة .. وهدير هذه فتاة مرعبة من نوعية الفتيات المتحررات، والتي لا تؤمن بشيء ولا يعنيها شيء .. فقط تحبها أسماء :لأنها لا تكذب ولا تتجمل .. إنها الصدق الصادم بدون مجاملات أو بروتوكولات اجتماعية .. صديق لا تتوقع منه طعنة غادره ولا تحتاج لوقت لتؤول كلامه .

هدير هذه لم تترك شيء في العالم لم تجربه .. من الملابس الغريبة ودق الوشم وتعاطي الممنوعات إلى الحفلات والرقص واعتناق الأفكار الغريبة والشاذة .. مما صنع حولها هالة وجاذبية مروعة

أسماء ترتاح بالقرب من هدير ،ولكنها تصنع دائمة مسافة بينهما ليس لسبب معين إلا أن مظهرها يوحي بالانحلال الأخلاقي .والمجتمع لا يفرق بين المرء وخليله.

أسماء تعرف أن هدير طيبة القلب ،ولن تعرض عليها أي من أفكارها أو سلوكياتها الشاذة ، ولكنها تترك قيود المجتمع لتمنعها من الاختلاط الدائم والمباشر بها .فالأوصياء في كل مكان كملح الأرض ، ودائماً لهم منطقهم الراسخ المشوه الذي يفرضوه على غيرهم بقسوة لا تحتمل، وكأن هموم الدنيا تستدعي أن يكون هناك من كل مهمتهم في الحياة أن يفسدوها علينا .

عندما تشبعت أسماء بفكرة تحضير الأرواح .. لم تكن لديها الشجاعة لتمارس أي من طقوسها .. الأمور تبدو سهلة إلى حد ما ..فهناك طرق عدة لممارستها .. لوح الويجا المتوفر في كل مكان .. طريقة السلة والقلم طريقة الكأس .. باستخدام النصوص المقدسة ..عن طريق الوسيط .. عن طريق استجداء الجن ..وعشرات الطرق الأخرى .

لدى زوجها عدة كتب تتحدث عن نفس الأمر في استفاضة ،وتذكر مئات من الحالات الناجحة، والموثقة لعمليات تحضير الأرواح .. إنها المرة الأولى التي تعرف فيها أن هناك جمعيات وهيئات محترمة تمارس مثل هذه التجارب الغريبة.

الأمر سهل ويحدث ،ولكنها لا تجرؤ على طرق بوابة هذا العالم المخيف وحدها ..لابد وأن يكون هناك من يساعدها ،ويشد من أزرها، ويمنعها

من التمادي لو تورطت أكثر . ولا نحتاج لكثير من الذكاء لتعرف من سيكون هذا الشخص .

هدير .. !!

بالطبع ومن سواها ..هدير والتي تبدو وكأن شياطين الدنيا جميعها تسكن جسدها .. وتستولي على روحها ..هي من عليها العين دوناً عن العالمين..على أسماء فقط أن تتخطى مرحلة الخجل ، وتجد عذراً مقبولاً لأنها لم تتواصل معها منذ عدة أشهر ،ولم تدعها لحضور عرسها .

كانت تعرف عن يقين أنها ستجد حجة جيدة ..لابد وأن تجد واحدة .. فرغبتها للقاء زوجها تتفوق على أي شعور آخر ..كما أنها ستكون فرصة ليقضيان بعض الوقت سوياً يستعيدان ذكريات أيام لن تعود مرة أخرى ، وقبل أن تنحسر موجة الحزن عن القلوب ،وتبدأ مقاوضات عودتها إلى منزل العائلة ..لأنها أرملة ووحيدة والشائعات لا ترحم أحد .

وفي النهاية تغلبت على خجلها وترددها وهاتفتها ،وفي المساء كانت هدير تخطر في شقتها بثيابها السوداء ، وجهها خالي من الأصباغ على غير العادة ، وإن كان يضج بحمرة متألقة تتعارض مع ملامحها المرهقة .. كانت مختلفة جداً في ثوب الحداد .. هي التي كانت تكره اللون الأسود كالطاعون .. أخيراً خضعت للتقاليد ..

أشعلت هدير سيجارة رفيعة بنية اللون ،وأخذت تطلق من فمها حلقات متتابعة من الدخان،وهي تتأمل أثاث الشقة في لا مبالاة قبل ن تتساءل في ملل :

من الذي اختار هذا الأثاث ؟!

- إنه ذوقي

- توقعت هذا ..

- لام تلمحين ؟

- لاشيء سؤال لا أكثر..

نفثت حلقة جديدة من الدخان قبل أن تستطرد:

- المهم لتخبريني الآن ما هو الشيء الملح الذي جعلك تكلميني بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة ،وقبل أن يأخذنا الحديث ..تعازي الحارة على وفاة زوجك .. كم أشعر بالأسى أن التعازي سبقت التهنئة.

النساء لا يغفرن أبداً .. ها هي تذكرها بتجاهلها لها في دعوات العرس .. اندفعت لتدافع عن نفسها :

- لقد كان الأمر سريعاً ،واقتصر على المعارف من الدرجة الأولى و..

أشاحت هدير بيدها وهي تهز رأسها بمعنى أنها متفهمة ، وعليها أن تنتقل للسبب الحقيقي لوجودها هنا ..

صمتت أسماء وظهر على وجهها التردد مما جعل هدير تشيح لها مرة أخرى قبل أن تحثها قائلة :

- الطريق المستقيم

نظرت لها أسماء في غير فهم ، فقالت بنفاذ صبر :

- أقصر الطرق بين نقطتين . هلمي أخبريني بسبب وجودي هنا لا داعي للتردد فأنا لن أعضك .

شعرت أسماء بعرق غزير ينهمر على عنقها ،ولكنها كانت قد قررت :

- أريد أن أقابل زوجي ..

رفعت هدير حاجبيها في دهشة ثم قالت :

- ومن المعتوه الذي أخبرك بمقدرتي على فعل أمر مستحيل كهذا الشيء .. إن زوجك مات ..

صمتت للحظة ،وكأنها تدير في رأسها فكرة ما ثم تساءلت في فزع :

- هل تريدين أن أقتلك ؟.. يالك من مخبولة .

انتقل الذعر إلى وجه أسماء ، وتلجلج لسانها بداخل فمها، وكأنها تجرب الحديث للمرة الأولى ، فاعتصرته لتخرج بجملة مفهومة :

- من أوحى لك بهذا الجنون ؟..

- حديثك عن مقابلة زوجك

ضحكت أسماء في عصبية قبل ان تقول.

- لا ليس الأمر هكذا انا فقط اريد أن

صمتت مترددة ولكن هدير الضجرة حثتها على الحديث :

- هيا أخبريني لا داعي لهذا الأداء الرخيص .

سحبت هدير شهيقا عميقا ملأت به صدرها قبل ان تقول :

- أريد تحضير روح زوجي .

كان رد فعل هدير صاخباً . فقد أطلقت ضحكة صاخبة تردد صداها في أرجاء الشقة الخالية إلا منهما . قبل أن تنظر لها بعيون متألقة جذلة .

- لم لا .. ولكن هل تدركين حقيقة ما تقومين به ؟.

صدمها رد فعل هدير، ولكنها تجاوزته، وتشبثت بكلماتها، وأجابت بسرعة

- بالطبع .. لقد أوحشني كثيراً.

فردت هدير ساقها بعصبية فوق المنضدة المقابلة لها ،وقالت :

- الأمر ليس بالبساطة التي تعتقدينها .. فلكل شيء ثمن .. وثمن العبث بهذه الأمور..دائماً ما يكون فادحاً .

- لا بأس لا باس ..أنا مستعدة لكل شيء ..فقط أريد التواصل معه لمرة أخيرة .

ساد الصمت بينهما .. صمت جعل أسماء تتساءل عن حقيقة طلبها ..ماذا ستفعل بعد أن تتواصل مع زوجها .. ما الهدف الحقيقي من مغامرتها المجنونة هذه..بينما كانت هدير تفكر في الأمر من عدة أوجه قبل أن تقول :

- يبدو أنك مصرة .

- لأقصى مدى .

- أنا معك .. ولكن هل هناك وسيلة محددة تريدين استعمالها .

- لا أعرف .

- أتركي لي الأمر إذاً .

(٢)

لم يتم الأمر على الفور كما توقعتم، واستها هدير مرةأخرى، ثم غادرت . وتركتها نهباً للأفكار.والسؤال الذي فاجأها ولم تكن تعد العدة للإجابة عليه .

- ماذا تريد حقا من زوجها ؟!..

لقد اختطفه الموت من جوارها دون مقدمات ..إنها تريد أن تودعه .. نعم هذه هي الإجابة .. تريد أن تودعه وتخبره بأنها ستظل على الوعد ولن تتزوج غيره ..لن يمسها بشر حتى تلتقيه في الجنة ولو بلغ عمرها ألف عام .. لقد اكتفت به عن كل الرجال .

أراحتها هذه الفكرة كثيراً . فقررت أن تنام قليلاً لتتهيأ لقدوم هدير . وذلك بعد أن أعدت بعض ملابسه الحميمية .التي تعرف أن الأمر سيحتاجها .

أضاءت كل مصابيح المنزل ، ثم خلدت إلى غرفتها ..إنها تشعر بخوف غير مبرر ، وبرغم ذلك تنام في الفراش الذي طالما ضمها مع زوجها من قبل طلباً للأمان.

غطت وجهها بقميص زوجها .. ثم ذهبت في سبات عميق ..

بلا أحلام .

—

عندما غابت الشمس ، كانت أسماء تجلس وحيدة في شرفة منزلها ، إنها تلك الفترة التي تلي طقوس العزاء ،والمؤازرة، والفضول ،والتطفل، التي تخيم على جو الجنازات الكئيب .

شعرت أخيراً ببعض الحرية .. لقد مرت في الأيام الماضية بأوقات عصيبة .. بل بأسوأ أوقات حياتها .. كم كرهت عالمها الذي اكتسى بالسواد ، والنظرات المشفقة التي كانت تلتهمها طوال الوقت ، وإجبارها على الاستماع للمواساة من عشرات النساء اللاتي لم يأت معظمهن بود حقيقي ..

العزاء كان حفلاً للنميمة ، ولإخراج المكبوت في الصدور ، وهو مازاد حالتها سوءاً .. إن الجريح لا يحتاج لجرحى آخرين بجواره .

الحزن يطلب الوحدة .. يطلب الهدوء ..يطلب العزلة .. وإلا تحول إلى جنون .. وأحال الحياة لجحيم مقيم .

الآن هي وحيدة بعد أن استجدت من والدتها وأقاربها أسبوعاً تقضيه وحدها، كي تستعيد ذاتها التي تبعثرت بموت زوجها ، لا تعرف لماذا شعرت أن موت زوجها كان قيد، وحكم عليها بالإقامة الجبرية.

إنها لم تعد حرة ، إنها كالسجين الذي ينتظر حكم بالسجن مدى الحياة .. لماذا لا يتركوها لشأنها؟ .

كانت تعرف أن محاولتها ضرب من الجنون ، وأن ما تقوم به لا يخضع لقانون الطبيعة ، ولكنها تحتاجه ..إنها تشعر بوحدة عارمة ، تشعر أنه

تم اختطافها .. بل اختطاف حياتها بالكامل .. كل شيء حولها كما هو المنزل ..الأثاث .. الأحلام ..كل هذه أشياء تفتقد لعنصر واحد لتكون حقيقية .. تفتقد لوجود زوجها .. تفتقد لوجود الفارس الذي سيحول كل هذه الأحلام لحقائق ..

هي تعرف أن الأمر لو تحقق سيكون مجرد اتصال . كالحديث عبر الهاتف .. ولكن مجرد حدوثه سيمنحها الأمل لتصمد حتى تلقاه في العالم الآخر

الأمر غير منطقي ومعقد ولكنها تحتاجه بشدة

إن فهم نفسية المرأة شيء معقد ، كفهم حقيقة السحر عبر الزمن وحقيقة الوجود ..

هي نفسها تشعر بشد عظيم ، ولكنها ستستمر .. الأمر يستحق محاولة..

اللقاء حلم ..

واللقاء أمل .

وبعض الأمل يعطي دفعة للحياة .

إنها هشة أكثر مما يعتقد من حولها .. هشة لدرجة أن الانتحار يبدو لها كفكرة عظيمة . فكرة ستستعيض عنها باللقاء

ساعات ثقيلة مرت عليها، وهي في لجة من الأفكار العاصفة ، وعندما هاتفتها هدير عن قرب وصولها..شعرت بصدمة ..اللقاء سيحدث وهي لم تستعد له .

وعلى الفور قامت من مكانها ، تركت الشرفة والحياة اللاهثة خلفها وقررت أن تتزين .

نعم .. سترتدي لروحها أفضل ثيابها وستضع أفضل عطورها . ستكون في لحظة اللقاء .. الملاك الذي طالما تغنى بجماله .. ولكن ليتم الأمر سريعاً فهدير تفصلها عنها نصف ساعة فحسب .

أطلقت آهة مكتومة تعبر عن ما يجيش بصدرها ، ثم بدأت الأمر.

عندما وصلت هدير بثيابها السوداء ، وعينها التي لم تتبدل ، أصابتها الدهشة كثيراً .. هدير التي لم يكن يدهشها شيء وقفت أمامها لنصف دقيقة تتأملها بفم فاغر وعيون متسعة قبل أن يستوعب عقلها المعجزة الكونية التي بدلت أسماء خلال عدة ساعات .. لم تكن هذه أسماء التي تركتها منذ عدة ساعات كسيرة النفس متجهمة الملامح يظللها ثوب الحداد .. كانت أسماء أخرى رائعة الجمال في قميص نوم أبيض ومكياج كامل .. عروس في ليلة عرسها .

وعندما جلسا سوياً حول المنضدة التي افترش ظهرها لوح ويجا قديم وثمين يبدو عليه الأصالة والقدم ، ابتدرتها هدير قائلة بصوت متردد :

- الأمر لن يكون كما تعتقدين ، الويجا لا تظهر أشخاصاً .. سيكون مجرد حديث مرهق بالأحرف .

كانت أسماء قد وصلت لمرحلة من الاعتقاد ، لم يكن ليجدي معها أي حديث وقد ظهر هذا في ردها .

- صدقيني يا هدير أنا أعرف أنه سيكون هنا ..وهذا أقل شيء أقدمه له .

- قد يفشل الأمر يا أسماء .. هذه أشياء لا قواعد لها ..

- لن يفشل صدقيني .. فقط كفي عن الحديث ولنبدأ .

(٣)

قامت هدير بخفض الإضاءة ، ثم أخرجت المؤشر من حقيبة كانت تحملها معها ، ونظرت نحو أسماء وقد ارتسمت الجدية على وجهها ،وهي تلقنها تعليمات الجلسة .

- لا تفزعي مهما حدث .. لا تتركي المؤشر حتى ننتهي ..لابد وأن نصرف الروح وإلا عادت .. فهل أنت مستعدة .

هزت أسماء رأسها في توتر، ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت :

- مستعدة .. مستعدة لكل شيء .

كانت أسماء مستعدة ولكن هدير - وهو شيء عجيب - لم تكن كذلك ..ربما للمرة الأولى في حياتها .

هدير كانت تشعر بقلق غريب ، لقد مارست هذه اللعبة عدة مرات من قبل على سبيل اللهو والمرح ، وكانت هي وصديقتها تصنع بالحروف مقالب ومزحات كانت تنتهي نهايات مسلية، ولكن الأمر الآن مختلف .. هي تشعر أنه مختلف ..وإن كانت لا تعرف كنه هذا الاختلاف ..

ربما لأن الروح التي ستستدعيها تعرفها جيداً .. فلم يكن زواج صديقتها أسماء زواج صالونات .. بل قصة حب خلال سنوات الجامعة شهدت ميلادها هدير بنفسها .. ربما هو الحوار الذي ما انفك يتردد في عقلها بعد حديثها مع سيدة المتجر التي أعارتها اللوح.

- هل أنت جيدة في استخدام اللوح ؟

- لقد استعملته من قبل عدة مرات ..ولكنها لم تكن بأهمية هذه المرة .

وما الذي يجعل الأمر مختلفاً هذه المرة .

- إننا سنحضر روح زوج صديقتي الذي مات منذ عدة أيام .

- إنها تجربة خطيرة .

- لماذا ؟!

- الروح التي سيتم استدعاؤها روح حديثة .. قلقة.. الأرواح القلقة خطيرة جداً .

- سنكون حذرين .

- الحذر لا يمنع قدر.

- إن كان قدراً فلن يمنعه تراجع .

- كل يسير في طريقه المرسوم .. هل تفضلين طريقة محددة للموت ؟!..

عند هذه اللحظة شعرت بسخافة الحوار فلم تكمله ، وعادت تناقش مع السيدة عرضها .

علمنا الآن أن هدير لم تشتر اللوح ؛ لأنها لم تجد منه لدى متجر المقالب والأعاجيب الشهير في وسط البلد ، و قادتها الصدفة للتعرف على سيدة كانت تتسوق في نفس المكان ،ورأت خيبة الأمل على وجه هدير بعد أن أخبرها البائع بنفاذ كل ألواح الويجا حتى التي بالمخازن ، وأن دفعة جديدة ستصل خلال بضعة أيام .

وعرضت عليها السيدة ،والتي لا تعرف اسمها حتى هذه اللحظة ، والتي أقحمت نفسها إقحاماً في الحديث أن تقرضها لوحها . على أن تحافظ عليه وترد لها هذه الخدمة في وقت لاحق ..

لم تكن تعرف السيدة ،وكرهت نظراتها المقتحمة وعطرها الثقيل ، ولكنها قبلت بالصفقة .. ضيق الوقت جعلها توافق على اقتراض اللوح الذي كان بالمصادفة مع السيدة في سيارتها العتيقة المتوقفة أمام باب المتجر ..

الأمر كله في نظر هدير كان مجرد لعبة . لعبة مارستها من قبل وانتهت نهاية سعيدة بالنسبة لها على الأقل ..إلا هذه المرة . فقد شعرت بخوف غير عادي عندما تلاقت عيناها بعيني هذه السيدة قبل أن تغادر ..لقد خيل لها بصرها أنها ترى نيران الجحيم تشتعل بداخل العينين .

لم يعد الأمر مريحاً ولكنها لم تعتد أن تتراجع عن قرار اتخذته .

إنها مجرد لعبة .. فلماذا تتوتر ..ربما هو إصرار أسماء والجو المحيط بها هو ما جعلها تفكر مرتين . وربما لقاؤها بالسيدة المريبة .. لقد مارست كل أنواع الجنون دون قلق ..حتى أنها ذات مرة اعتلت إفريز النافذة الخلفي الذي يتسع بصعوبة لأطراف أصابعها ،وعبرته متسللة إلى الغرفة الأخرى دون أن تشعر بذرة توتر.

الموت والحياة عندها سيان ..فلماذا تشعر بهذا القلق الآن؟.

هزت هدير رأسها وكأنها تسعى لطرد هذه الأفكار السلبية . وسحبت نفساً عميقا طردت معه بعض من توترها . ثم قامت بإخراج شمعة سوداء أشعلتها على المنضدة . ثم أشعلت منها عود بخور نفاذ عبق رائحة المكان.. قبل أن تضع سكيناً حادا ذا مقبض خشبي بينهم فوق المنضدة في لمسة كيلاسيكية مروعة.

أسماء كانت تتطلع نحوها بعيون متسعة من الدهشة . فهي لم تكن تعتقد أن الأمر معقد لهذه الدرجة . كما أنها لم تكن تعتقد أن هدير على هذه الدرجة من المعرفة بطقوس الأمر.

وضعت هدير يدها فوق المؤشر وتبعتها أسماء ثم بدأت الطقوس

- come ouija .

- come ouija .

- come ouija .

دق قلب أسماء في عنف .. عندما شعرت بتيار من الهواء البارد يصفعها . مع اهتزاز لهيب الشمعة . وتبعثر أعمدة الدخان المتصاعدة من عود البخور .

- come ouija

- come ouija

- come ouija

اصبح الجو حولها متوتراً وتعبق بكهرباء اصاتكية عالية ،ولو سقطت ابرة على الأرض الآن لأصابتها أزمة قلبية .

- come ouija

- come ouija

- come ouija

لحظات ثم سمع الاثنان الدقة العنيفة، والتي تشبه من يقرع إناء معدنياً بجسم صلب .

ترااك ... تراااااااااان ...تراك .

توترت أيديهما المشتبكة فوق اللوح . وشعرا بضيق غامر يجثم على صدورهم وبصعوبة في التنفس ..

شعور مزلزل بالرعب اجتاحهما وكادت أسماء أن تسحب يدها وتفسد الأمر. ولكنها تماسكت بصعوبة .. مع صوت هدير المضطرب بأن تلزم مكانها

هدير التي تخوض الآن تجربة عمرها ..

لقد وافقت هديرعلى القيام بالأمر ،وهي تجهز بقرارة نفسها لخدعة بريئة ستساعد بها صديقتها في المحنة التي تمر بها.. كانت ستخبر أسماء عن طريق التحكم في المؤشر بأن تمضي في حياتها وأن تتزوج ..

ولكن الان الأمر يبدو حقيقياً ..صوت أسماء يقرع في أذنيها .

- come ouija.

- come ouija.

- come ouija

إن الدقة كما أخبرتها السيدة تعني أن ويجا قد حلت ،وستساعدهم في التواصل مع الروح المطلوبة .

أسماء تردد دون توقف وكأنها مسها مس :

- come ouija.

- come ouija.

- come ouija.

ضغطت هدير على يدها لتتوقف ثم قالت بصوت مضطرب :

- توقفي توقفي لقد حضرت ويجا ..هيا أخبريها بما تريدين ..

أسماء تنتفض في قوة .. جسدها يرتعش .. تشعر بعجز هائل وخوف متصاعد .. إن الأمر مرعب بالفعل ..إنها تشعر بالحضور الطاغي لويجا .. الأمر ليس خدعة إذاً.

تمالكت أعصابها بصعوبة .. ولملمت شتات نفسها ،وهي تلتمس العون من قبضة هدير ،والتي ارتسمت على وجهها ملامح خوف مروع ، جعلها تعود لطبيعتها البشرية . وتفقد ملامحها المستهترة ..

- ويجا أريد أن ألتقي بزوجي .

وما إن انهت أسماء من الجملة ، حتى تحرك المؤشر بسرعة متوسطة فوق الحروف .

b-l-o-o-d -

ارتجفت هدير وسرى في جسدها قشعريرة باردة مع قراءتها للجملة ،ورددت بصوت متحشرج :

- إنها تريد الدماء ..امنحيها بعض الدماء لننتهي من هذا الأمر..

سحبت أسماء يد واحدة بقلب خفاق وروح مرتجعة ، ثم وبطريقة عنيفة قبضت على نصل السكين لتجرح بطن يدها بالسكين، ثم رفعت يدها لتغرق اللوح بالدماء .

تسربت الدماء عبر اللوح ، قبل أن تمتصها مساماتها الدقيقة في جشع ، وما أن توارت الدماء حتى دوت الصرخة في الأرجاء .

صوت أنين عميق ..معذب ، وكأن صاحبه يعاني من آلام مروعة .

كادت أسماء أن تسحب يدها من المفاجأة ،ولكن هدير كانت تتابع كل شيء بعيون صقر ،فقبضت علي يده بقوة ،وثبتتها فوق المؤشر، وهي تقول بغضب ممتزج بهستريا وخوف :

- لا تفسدي الأمر.

وبصوت مرتجف قالت هدير:

- هل حضرت يا ويجا ؟!.

كالمحموم تحرك المؤشر فوق الأحرف لتكون الحروف جملة مقتضبة

h-e- i-s h-e-r-e -

كانت الإجابة صادمة للمرأتين .. لم يعتقدا أنهما سينجحان في نهاية الأمر، وربما تمنتا هذا بعد الهول الذي يمران به .

ضغطت هدير على يد أسماء المتصلبة فوق المؤشر وقالت :

- هلمي لتنهي الأمر ماذا تريدين أن تخبريه .

تلجلجت أسماء من الخوف .. كل مشاعرها السابقة تلاشت . وظلت الفكرة فقط .واحتاجت لمجهود عنيف كي تستطع أن تخرج العبارة من بين شفتيها :

- أخبري زوجي أنني أحبه ..أخبريه أنني لن أخون العهد وسأنتظره ..أخبريه أنني أتمنى لقاءه وأن يظل بجواري إلى الأبد .

تحرك المؤشر كالمجنون وأخذ يردد :

he is here-

he is here-

he is here-

وكالمجنونة [illegible]دت أسمـ

اين اين ؟!..

صوت جلبة عالية مختلط بصوت أنين وصـ [illegible]

شهقت هدير في قوة . هناك أمر جلل يحدث أمر لم يحدث في أي جلسة ويجا سابقة قامت بها . أمور خارقة معقدة

لم تستطع هدير أن تتحمل إتمام التجربة [illegible] وبصوت صارخ اخذت تردد

- go ouija

- go ouija .

- go ouija .

دوت الصرخة من جديد. وأحاطت بهم رياح باردة مع ضباب مخيف . انطفأت على أثره الشمعة ,وتلاشت معها رائحة البخور من الجو. وعبق المكان برائحة منفرة تشبه رائحة الجثث المتحللة. وبصوت صارخ رددت هدير:

- يا إلهي لقد أتى !!.

وعلى الفور شعرت بلطمة هائلة . ووجدت جسدها يطير عبر الصالة ليخترق ظهرها سيخ تقليب النار الموجود بجوار حائط المدفئة العتيقة..

لم تصدق هدير أن السيخ المعدني يخترق أحشائها .. لم تصدق أن كتلة المعدن الصدئة هذه تمتص من جسدها الحياة ، وقبل أن تفارقها الحياة تذكرت حديثها مع سيدة المتجر المخيفة .

- يدعي البعض أن كلمة ويجا (Ouija) هي اسم لجني قديم ٠ لأن السحرة قداستكروها كوسيلة للاتصال بالأرواح والموتى ..والبعض يقول أنها ترجمة لاسم مدينة مغربية ، ولا أحد ينكر دور المغرب في السحر الأسود . والبعض يقول أنها تعني الحظ السعيد باللغة الفرعونية القديمة ، والبعض ترجمها على أنها كلمة نعم .

- إذاً فليس هناك تعريف محدد للكلمة .

- الكل اختلف في صيغة الترجمة ,فقد تباينت الثقافات والظروف. ولكنهم اجتمعوا جميعاً على كونها وسيلة جهنمية للاتصال بالأرواح والموتى ، بل وتحدث البعض عن لوح ويجا خاص يختار ضحاياه ، ويسقط دائما في يد العشاق المحرومين ليحقق أمنياتهم ..لا أحد يدري صدق هذه الحكايات، ولكن من يجرب يحظي بالمعرفة ..

بصقت هدير الدماء من فمها وأخذت أطرافها ترتجف مع برودة هائلة تغزو جسدها ,وكأنها بقلب ثلاجة لحوم ، لقد أيقنت الآن أن المرأة منحتها لوح ويجا ملعون .. لقد كان الأمر كله فخاً مرتباً ..ربما هذه المرأة من أوحت لصديقتها بأمر تحضير الأرواح هذا .

بصقت المزيد من الدماء ,وهي تفكر لقد اختارهم اللوح الملعون.. يبدو أن رابطة العشق بين أسماء وزوجها كانت قوية لدرجة أن التقط ذبذبتها لوح الويجا، وقرر أن يكونا عبيده .

الخادم

وفي لحظة احتضارها الأخيرة تذكرت جزءاً آخر من الحوار.

وكيف عبد لك اللوح

لا تقلقي فاللوح سيجد طريقة .

- نصيحة أخيرة قبل أن تنصرفي ..

- ... ...

- الروح التي تأتي يجب أن يتم صرفها .. ولكن تذكري .. من يأتي لا يعود .

لفظت هدير أنفاسها الأخيرة . ثم همد جسدها تماماً ..وفي الخلف وقفت أسماء المرتجفة وقميص نومها الأبيض يتطاير مع الرياح الباردة في مشهد مخيف . ومن قلب الظلام خرج لها كيان غير محدد الملامح ،وعندما وقع بصرها على وجهه المشوه صرخت في عنف ،وقبل أن تفقد الوعي سمعت العبارة المتحشرجة:

- أنا هنا .

لم تتحمل أسماء أكثر . لقد سقطت لترتطم بحافة المنصدة في قوة ،ليظلم كل شيء أمام عينيها .. وتفقد الوعي .

وفي ظلام المنزل .. تحرك ذلك الشيء ،وفجوتا عينيه الخاليتان المظلمتان تتاملان المنزل في شغف ،وبنفس الصوت المتحشرج قال :

- أنا هنا .. في منزلي ..

وكسا الضباب كل شيء.

(١)

قال له والده ذات يوم :

- تتلخص الحياة في قصة الأبواب القديمة التي حكيتها لك مراراً ،ولم تفهم المغزى منها.فالحياة كالغرفة التي لها بابان ..باب يقود للهلاك وباب يقود للنجاة ،وأنت من تختار بابك ..

وإن كنت أعرف اختيارك السيء مسبقاً .

***

ارتقى أمين درجات البناية المتهالكة التي يقطن بها في مشقة مع وزنه الزائد ،وجسده الرجراج . وكيس الفاكهة الذي مثل عبئاً إضافيا على قلبه المريض .

كان يتنفس في صعوبة ويعب من الهواء سيء الرائحة في عسر. درجات السلم المتآكلة لا تساعده كثيراً . لم يكن عليه أن يثقل في الطعام لهذه الدرجة ،خصة وأن معدته لم تعد تتعامل مع مروانه المتواضعة بالرقة المطلوبة ،وتعلن تذمرها طوال الوقت .

مصباح " الفلورسنت " العتيق المعلق في سقف الدرج يأن ويرسل ومضات واهنة متتالية تنذر بقرب نهايته وحلول الظلام . الرائحة الكريهة تجثم على صدره فيتوقف قليلا ليلتقط أنفاسه ، كل شيء أصبح عسيراً عليه حتى أبسط الأشياء:التنفس نفسه أصبح بحاجة لترتيبات مسبقة ، صدره يشخشخ كموتور سيارة قد مل من طريقة

تعامل صاحبه معه . إن حالته مزرية إلى أقصى حد ، ويبدو في هذه اللحظة الحالية كجثة بدينة تمشي على قدمين .

استند أمين على الدرابزين ليستريح قليلا ، فأن الدربزين من الوزن الملقى فوقه . نظر أمين إلى الأعلى بتجهم إن البناية كلها مكونة من ثلاث طوابق. وهو يسكن في الطابق الثاني فلماذا يشعر بهذا الإرهاق كأنه يتسلق جبال الألب، لابد أن يلجأ لبرنامج حمية قاسي .

صعد عدة درجات ثم توقف ، الفسيخ يجثم على أحشائه والعصارة الحمضية تكاد تجعله يتقيأ . لم يكن عليه أن يستسلم لهذه النزوة القاتلة ، إن عوامل السن مع زيادة الوزن مع طعام مماثل تجعل القبر أقرب إليه مما يتصور .

استجمع كل قوته وصعد الدرجات القليلة المتبقية التي تفصلة عن باب شقته ، وأمام باب الشقة وقف يلهث ككلب عقور يقطع الصحراء تحت قيظ شمس حارقة.

أخرج سلسلة المفاتيح من سرواله الملتصق بفخذيه كجلد إضافي . قبل أن يقحم المفتاح في رتاج الباب ويديره في وهن، ليدفع الباب بعدها في صعوبة ، لينفتح الباب مصدراً صريره المعتاد .

خطا أمين بقدميه خطوة واحدة نحو مدخل شقته ،ثم تراجع كالملسوع ، وهو يحاول أن يتماسك بصعوبة كي لا يسقط على ظهره من هول المفاجأة..بالفعل كان الأمر مفاجئاً فعندما فتح أمين باب شقته

القديم فتحه بحيادية من اعتاد فعل الأمر طوال خمسة عقود في عمره المنصرم .

ما وقع بصره عليه كان أصل المفاجأة ,لم يكن المشهد المعتاد الذي طالما طالعته عيناه كلما فتح باب شقته عند قدومه من الخارج .

المشهد كان مختلفاً تماماً .. بل كان مخيفاً .

نظر أمين حوله متشككاً متأملاً كل التفاصيل البسيطة التي اعتاد ان تحيط بباب منزله القديم.. وهو يتساءل هل أخطأ في تعرف شقته حقاً؟

الطلاء المتشقق . المصباح المكسور ..رقم الشقة .. خربشات الأطفال على الجدران . حذائه البني الممزق .. العين السحرية المفقوءة .. كل شيء كما اعتاده تماماً.. فلماذا إذن يختلف الداخل عن الخارج ؟.

هز رأسه مندهشاً وهو يعيد غلق الباب في حرص ,وكأنه يخشى أن يزعج أشخاصاً غير موجودين بالفعل . قبل أن يعيد فتحه مرة أخرى وهو يلهث ..

حقيقة إنه حي حتى هذه اللحظة تهز من يشاهده يتدحرج عبر الطريق بعشرات الكيلوات من الدهون والشحوم التي يتكون منها جسده.

مرت دقيقة كاملة هي مقدار الصدمة التي اعترته ,وخلالها لم يتوقف لهاثه لحظة .إن الوقوف يرهقه تماماً كالحركة.

حاول استجماع أنفاسه عندما فاجأه المشهد.. نفس المشهد المخيف السابق دون ذرة اختلاف واحدة .. لقد تعامل أمين مع الموقف الغير طبيعي بنفس طريقة التعامل مع الأجهزة الإلكترونية والكهربائية عندما يصيبها خلل ما ..الإغلاق ثم إعادة التشغيل ؛ كي يعيد لها الحياة ,ولكن الطريقة العتيدة فشلت تماماً فلم يتغير شيء .. لذا فإنه بدأ بعدها مباشرة في الانتقال للفرضية التالية ..

هل أصيبت عيناه بخطب ما ؟.

تأمل كل شيء حوله مجدداً بعد أن فرك عينيه عدة مرات ليتأكد من سلامتها ..مازال الأمر كما هو لم يتبدل منه شيء . ربما زادت الرائحة الكريهة التي عبقت مدخل البناية مع المعالجة السيئة لماسورة الصرف التي تقيء الماء الآسن طوال الوقت.. ولكن هذا كل شيء .

الأمر مختلف ولكنه لا يشعر بأي اختلاف ،عدا ما يوجد خلف الباب .

البناية هي بنايته التي قطن وترعرع بها ولا غبار عليها . فهو لن يتوه عنها بعد هذه السنوات التي جمعتهم معاً. الباب هو بابه فمفتاحه يفتحه دون عسر .كل التفاصيل الأخرى تعود له أو عاصرها . وبرغم كل تلك التأكيدات فالشقة التي تقع خلف الباب ليست شقته .

شقته لم تكن بهذا الاتساع .. ولم تكن خالية من الأثاث .. كما أنها لم تكن بهذه الكآبة ولا بمثل هذا الظلام الكثيف .

تأكد الآن من أن سوء ما أصاب عينيه ،فعندما يتجاوز المرء العقد الخامس من عمره ، فهو لا يشك في الأشياء ،بل يشك في نفسه .

وضع كيس الفاكهة الذي كان يحمله بجوار الباب المغلق . ثم استدار وقطع الممر القصير الذي يفصله عن شقة جاره وصديقه الراحل خليل. وطرق الباب لتخرج له ابنته الشابة رباب مصحوبة برائحة بقلية تفعم الجو . لابد وأنها تصنع الملوخية الآن ،ولابد وأنه قاطعها في مرحلة مهمة الآن ،لأن وجهها للوهلة الأولى ظهر عليه الضيق ،ربما قبل أن تقوم بالشهقة السحرية التي تمارسها كل نساء مصر للتأكد من جودة الحساء .

عندما وقع بصرها عليه ابتسمت وبادرته بالتحية فرد بأحسن منها ..إنها تقدره إذاً أكثر من حساء الملوخية إنه مؤشر جديد ،ومشجع على طلبه التالي .

- اعذريني يا ابنتي، ولكني أواجه مشكلة في فتح باب شقتي .

- هل فقدت المفتاح ؟

- لا ولكن يبدو أنني أعاني مشكلة في التصويب .

ضحكت ضحكة رائقة عذبة قبل أن تجذبه من يده وتتوجه إلى الباب قائلة :

- كل شيء إلا التصويب ياعمي ،فأنت من أبطال أكتوبر.

ضحك مجاملاً لها ثم منحها المفتاح ..قبل أن يتراجع إلى الخلف خطوتين لا يعرف لماذا قام بهذه الخطوة السخيفة .

أولجت رباب المفتاح في باب الشقة . ثم دفعت الباب وعيناه تتابع تحركاتها وحديثها المرح.

كليك ..كراك

- المفتاح يعمل جيداً يبدو وكأنك كنت تستعمل المفتاح الخطأ..

نظر نحو الشقة بتوتر وتنفس الصعداء عندما رأى صالته، وأثاثه القابع بداخلها دون أي أمور مريبة أخرى .

الأمور طبيعية تماماً لابد وأنه أصبح شيخاً خرفا . والمرض قد بدأ يتمكن من عينيه بعد أن تمكن من قلبه .

التقطت رباب كيس الفاكهة الموضوع على الأرض بجوار الباب بتلقائية ، ثم عبرت نحو الشقة .

تذكر أنه ترك منامته المتسخة ملقاه على أرضية الصالة هذا الصباح .. حاول أن يسبقها ليداريها ولكن وزنه الثقيل منعه .. عبرت رباب الباب بخفة كعصفور رشيق وهي تقبض على كيس البرتقال . خطت خطوتين نحو الصالة ، ثم بدا وكأنها تعثرت ..أطلقت صرخة مكتومة ،وجسدها يندفع للأمام . كيس البرتقال يسقط منها نحو الفراغ ثم يتلاشى .. لم تصل منه إلا برتقالة واحدة تدحرجت حتى لامست حذاء

ُمين الذي جفل وكأنما مسه عقرب .. أما رباب فقد لحقت بكيس البرتقال، وتلاشت في العدم .. ولم يعد لها أثر بالداخل ..

الصدمة والمفاجأة كانتا قاسيتين على أمين . فما إن اختفت رباب حتى شعر بأن قلبه سيتوقف . لقد تحمل قلبه العليل الكثير هذه الليلة . ولو لم يحظ براحة سريعة ربما ستكون زيارة ملك الموت له هذه المرة هي الأخيرة .إن أزمته القلبية السابقة جعلته على حافة الموت . لقد أقسم لطبيبه الشاب أنه رأى ملك الموت بعينيه . نظرة الطبيب الشاب الساخرة جعلته يدرك أنه تسرع جداً في إخباره .

ترك قدميه تهتزان وتنثنيان من تحته قبل أن يجلس على الأرض مرتطماً، ليشعر بآلام شديدة في عظام نصفه السفلي . قبض على البرتقالة الوحيدة التي استقرت أمامه . وأخذ ينقل بصره بينها وبين المكان الذي تلاشت بداخله رباب . لم يستوعب ما حدث . ولا يبدو أنه سيستوعبه قريباً .

كيف يمكن تفسير الأمر ؟..

أن تدخل من باب شقتك الخارجي الذي يفتحه مفتاحك . لتجد نفسك تتطلع لمكان آخر لا يشبه منزلك . تغلق الباب وتستدعي ابنة جارك لتساعدك فيلتهمها المنزل .

أي شيء شرير سكن منزلك في الساعات القليلة التي غادرته فيها ؟

ولماذا الآن ؟ !.

مالذي تغير في الساعات القليلة التي تركت فيها المنزل .

لم يجد تفسيراً للأمر، ولم يجد الشجاعه الصورية ليتبع الفتاة إلى داخل المنزل ..فاستقر في مكانه يبكي كطفل صغير فقد والديه .. لحظات وتصاعدت رائحة طعام محترق .

لم يأبه للرائحة ولا لحساء الملوخية الذي تتزايد رائحة شياطه لتزكم الأنوف .

فقط كان يريد إجابة على سؤال واحد ..

أين اختفت رباب ؟ .

(٢)

نظر أمين بثبت للمكان الذي اختفت فيه رباب .. قلبه المريض ينتفض في عنف . وكأنه موشك بالفعل على أزمة قلبية .. يتنفس بعمق وكأنه يريد أن يلتهم كل ذرة أكسجين موجوده في هواء الأرض كله .. إنه بحاجة للأكسجين والهدوء ..بحاجة لمن يساعده ,و يفك له كل هذه الطلاسم من الغموض .

إن ما حدث له غريب ومخيف و عقله لا يستطيع استيعابه بسهولة .. فكيف يمكن أن يتلاشى إنسان في العدم ودون أدنى أثر .. ولماذا الآن ..أي سر يقبع خلف ما يحدث ؟..

أعاد النظر عبر الباب نحو البقعة التي اختفت فيها رباب مجدداً فوجد كل شيء طبيعيا .فبدأ يتساءل في قلق حقيقي ..هل تسبب أمراض القلب الهلاوس ؟ هل حقاً فتح الباب فلم يجد شقته خلفها ؟! هل حقاً استعان برباب فالتهمها العدم ؟!.. أين الحقيقة في كل ما يحدث ,وما ذنب رباب ؟!.. ماذنب رباب ؟!.. لا يمكن أن يتركها وحدها لتواجه هذا المصير المخيف .. لا يمكن ..

استند على الحائط بصعوبة . وبجهد رهيب قام برفع جسده المترجرج ليقف على قدميه اللتين كادتا أن تخونانه فيسقط أرضاً مجدداً.

هو يؤمن بطبيعته المتخاذلة وضعفة المبالغ فيه ، ويعرف أيضا أنه لن يترك رباب لمصيرها الغامض ..فناهيك عن كونها ساعدته عندما لجأ لها فهي ابنة أعز أصدقائه .

اقترب أمين من الباب في وجل ، وضربات قلبه تتعالى كدوي المدافع حتى تكاد تصم أذنيه ..تقدم عدة خطوات مترددة في حذر .. وقبل خطوة من البقعة الملعونة التي اختفت فيه رباب توقف .

إنه خائف ..خائف من تلك الأشياء التي لا اسم لها ..والتي تقطن على حافة المجهول ..خائف من الأسوأ ..لأن الأشياء التي تبدأ هكذا تنتهي لمصير أسود .

خطوة واحدة تفصله عن المعرفة ,وعن فك غموض ما حدث في شقته أو الشقة التي لم تعد شقته ، ولكنه يجبن على أن يخطوها ..

التردد هو سبب كل شيء سيء حدث له في حياته .. فبسببه فقد حب حياته ، وبسببه استسلم لشهوة الطعام .وبسببه ستضيع ابنة أعز أصدقائه .

خطوة واحدة فقط ..

خطوة واحدة قد تكون فاصلاً حقيقياً بين الموت والحياة .

المجهول هو أعتى أعداء الإنسان ..وهو لايعرف إلى أين ذهبت ؟. ولا إلى ماذا سيقوده تتبعها .. هذا لو نجح الأمر واستطاع الوصول إليها

تنفسه يزداد صعوبة ..إنه على حافة الهلاك دون شك ..وبرغم ضغط الأفكار على عقله إلا أنه لم يتوقف عنها .

هل اختطفها الجن ؟!..

هل للجن هذه القدرة حقاً ؟!..

كان يبدو أن هناك صراعاً رهيباً يشتعل بداخله ، المصيبة أنه لا يعرف هل لو تبعها سيكون ذا فائدة ..أم أنه سيتبعها ويهلك كما هلكت .

إن قصص المختفين عبر التاريخ دون تفسير واضح لا يوجد أكثر منها ..وفي وحدته هذه لن يأبه أحد بالبحث عنه .

أن الإنسان الوحيد يفقد أهم مزية في الكون ..أن يكون هناك من يقلق عليه ويسأل عنه في حالة غيابه أو اختفائه ..و لقد فقد هذه الميزة منذ سنوات . فقد أغلق قلبه على حبه المستحيل ،ولم يتزوج ولم يرزق بأطفال، ومات صديقه الوحيد .

إن أمين يحتاج فقط لإشارة من تلك الإشارات التي انتظرها طوال حياته ،ولم تأت ..إنه يؤمن أن السماء تأتي في وقت ما ترسل للإنسان الضائع إشارة .. لو أحسن التعامل معها لتغيرت حياته إلى الأبد ..إشارة وعلى ضوئها سيتقدم أو يحجم .

هل يكون ما حدث هو الإشارة ؟.

دقيقة كاملة مرت عليه وهو متجمد كتمثال من شمع ..ولم تنهها إلا صفعة هائلة نزلت على وجهه ،وكادت أن تفقأ عينه اليسرى ،و معها دوى صوته الغاضب :

- هيا أيها المتخاذل لتقم بما عليك القيام به .. كيف تترك ابنة صديقك في محنة ..أنت من أوقعتها فيها .

كانت الصفعة التي صفعها لنفسه هائلة ومفاجئة له هو شخصياً فأعادته لعالم الواقع بطريقة صعبة.. بل وباللعجب منحته شجاعة لحظية ..جعلته وبدون تفكير يتقدم صوب المكان الذي تلاشت فيه رباب ويدفع كتل الدهون التي يتكون منها جسده بتصميم هائل ، لم يظن هو نفسه أنه قد يملكه في يوم من الأيام .

خطوة واحدة خطاها للأمام منحها كل عزمه وتصميمه ليشعر بقدمه تزل على الفور مع سماع صرير عالي كبوابة قديمة تفتح عنوة .قبل أن يتلاشى من حوله كل شيء يعرفه ..ليشعر بعدها ببرودة عاتية تتخلل كل عظمه من عظامه مع انعدام تام للرؤية والوزن .

لحظات قصيرة من الألم والمعاناة مرت عليه في ثقلها كقرون ، قبل أن يهدأ كل شيء من حوله ، ويتلاشى الصوت الصخب ..ويشعر مجدداً بأن لجسده وزناً وكياناً محددين ، مع شعور عارم بخفة غريبة لم يشعر بها منذ كان في السابعة عشر من العمر .. آخر فترة نظر لجسده فيها دون أن تصدم عينيه كتل الشحوم والدهون .

الضغط من حوله مرتفع ..وكأنه يغوص في أعماق بحيرة بلا قرار .. والتنفس عسير كأنه يصعد به إلى السماء .. وجسده لا يستمع لتلك الأوامر أو الإشارات التي يرسلها إليه عقله .

شعر بعجز مروع .. وكأنه مكبل أو أصيب بشلل رباعي ..

لحظات شنيعة من المقاومة والمحاولة ،وأخيراً فتح عينيه فصدمه الظلام ..

ظلام دامس رهيب .. كأنه الظلام البكر الذي لم يخلق قبله ضياء .. ظلام له أنياب ومخالب ينشبها في أعماق الروح لتؤلم وتشوه

فرك عينيه أكثر من مرة ولكن النتيجة مازالت واحدة .. عيناه لا تستطيعان أن تخترقا عتمة هذا الظلام الدامس ..

حاول مجدداً ومجدداً وفي النهاية استسلم للأمر . لقد أيقن أن عينيه مفتوحتان ..والظلام هو ما يحيط به ..

بدأت قبضة الألم تتلاشى ..فصفا عقله قليلا ..وقرر أن يجرب أحباله الصوتية .

- رباب ... ربااااااب ...رررررباب .

تردد صدى الصوت في كل مكان كدوى أجراس عشوائية .. وارتد إلى أذني أمين خالي الوفاض وكأنه لم يكن..

كرر أمين الأمر عدة مرات دون جدوى .. ولكنه لم ييأس إنه في هذا المكان الغريب يمنحه قدرات أكبر مما يملكها في عالمه الحقيقي .. يكفيه أنه لا يلهث ولا يشعر بآلام الذبحة الشنيعة ..حرك قدميه فشعر بخفة هائلة في حركته فقرر أن يتقدم أكثر صوب المجهول ..

قطع عدة أمتار صوب الأمام، هكذا كانت بوصلته تقوده . على الرغم بأنه من المستحيل أن يكون ثمة اتجاه حقيقي وسط هذا الظلام الدامس .. أغمض عينيه ليشحذ باقي حواسه ,وهو يتقدم خطوة خلف خطوة .. عندما تلاشت البرودة، وشعر بحرارة عالية تجتاحه دون

مقدمات .. وقبل أن يأتي أمين بأي رد فعل متألم تبدل المشهد من أمام عينيه تماماً فتلاشى الظلام وسطع ضوء شاحب مسح من حوله الظلال لكل شيء ..و ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام رباب .

لا يعرف لماذا جفل عندما رأى بسمتها وهدوءها ..ولا لماذا شعر بهذا الخوف الشديد يعتريه..هل بالفعل كان لها ذيل مشقوق يتحرك خلفها في حرية .. هل كانت لها أنياب أخفتها عندما نظر نحوها ..

ما هذا المكان المخيف ؟!..

لقد قرأ ذات مرة ..عن نقاط التماس التي تربطنا بعوالم الجن والشياطين ..تلك النقاط التي تفتح في وقت محدد كل عدة قرون لتهدي إلى البشرية لعنة جديدة ..

هو يعرف أن هذه النقاط توجد في الصحراء والأماكن المهجورة . وهي أشياء لا تنطبق على شقته ..ولا على الباب الذي قاده إليها.

هل يعتبر قلبه أحد تلك الأماكن المهجورة ؟!.

لقد قرأ عن هذه الأشياء عشرات الكتب طوال سنوات وحدته ..فهل يكون قد سقط في إحداها ..ثم لماذا تبدو رباب بهذا الهدوء وكأنها في منزلها ..هل نظريته صحيحة إذن؟!..

أخذ يتفرس في ملامحها لبرهة، وكل أسئلة الكون تسكب في عقله ، فوجدها طبيعية تماماً لا غبار عليها .. نفس الثياب ..نفس الابتسامة .. نفس الوقفة الواثقة ..

وكان هذا يقلقه بشدة ..

هل هي مصدومة .. ربما هي تحت تأثير المفاجأة القاتل .. إن الصدمة تجعل البعض يبدون أكثر طبيعية من حقيقتهم ..ولكن هذا لا يعني أنهم بخير أبداً.

راودته أفكار سوداء أخرى فاستسلم لها ،وعيناه على وجه رباب الذي طبعت فوقه الابتسامة كإعلانات معجون الأسنان المستفزة .. إنه غير مقتنع بفرضيته الأخيرة..فلا يبدو على ملامحها آثار الصدمة ..إن الارتياح الذي يظلل وجهها يثير الكثير من التساؤلات .

هل هي حقاً تنتمي لهذا العالم ؟!..

لابد وأنها تنتمي لهذا العالم ..

المخيف أن تنتمي لهذا العالم ..

هز رأسه ليطرد كل هذه الأفكار المتلاحقة التي تضرب أعماق عقله ، وهو يحاول أن يقنع نفسه بكذب ما رأى وما يعتقد.. قرر أن ينهي الأمر .. لديه ذلك الإحساس بأنه قادر على إنهائه ..وهو يتبع قلبه دائماً ..

ترسخت الفكرة في عقله وكأنه قام بها مراراً من قبل .. ما عليه إلا أن يسحبها معه ،ويعود من نفس الطريق الذي جاء منه ..إلى الظلام ثم إلى شقته .. هو لا يعرف كيف، ولكنه يؤمن بقدرته على تحقيقه ..

اقترب منها وقلبه المضطرب يكاد يتوقف من الهلع حتى واجهها تماماً ..وبصوت يحمل كل مشاعره واضطرابه قال :

- أخيرا أنت هنا يا رباب .. لقد كاد قلبي يتوقف من القلق عليك .

نظرت نحوه رباب متأملة، وكأنها تراه للمرة الأولى في حياتها مرة ،قبل أن تقول بصوت عابث :

- ولكنني لست رباب .. لست هي .

وفي اللحظة التالية تحولت عيناها لجمرتين متقدتين وصارتا كبوابتين مفتوحتين على جحيم مشتعل .. ليشعر أمين بعدها بصاعقة تجتثه من مكانه اجتثاثا ليرتطم بالأرض في عنف شديد ..

الارتطام جعل الدماء تتفجر من رأسه كنافورة قبل أن يفقد الوعي .

(٢)

عندما أفاق أمين وياللعجب .. وجد نفسه في شقته وبجواره رباب ترش الماء فوق وجهه المجهد ، بعد أن ضمدت رأسه بضمادة صنعتها من قميصه على عجل. الألم في رأسه عاصف ولكنه محتمل ..صوت رباب الرقيق يخترق عقله بسلاسة :

- حمداً لله على سلامتك يا أستاذ أمين .. لقد كدت أموت من الهلع عليك .

حول أن ينهض فلم تطيعه أطرافه على الفور ..فساعدته رباب بسهولة مريبة ليبدل وضعيته من الاستلقاء إلى الجلوس..وهو ينظر نحوها بعيون حذرة متوترة .. لم يستطع الكلام فصمت ..وفي رأسه يدور سؤال لم تستطع البشرية أن تجيب عنه طوال قرون لا حصر لها :

- ماذ حدث حقاً ؟.

ويبدو أن رباب شعرت بحيرته ، أو قرأت ما يدورفي عقله فقالت على الفور :

- لقد سمعت صياحك وصرختك وأنا عائدة من الخارج ..فهبطت مباشرة لمساعدتك ..

صمتت للحظات قبل أن تبتسم مستطردة :

- يمكنك الآن أن تعتبرني ملاكك الحارس .

كان يريد أن يلقي عليها آلاف الأسئلة ، ولكن لسانه لم يسعفه فظل على صمته .. وعندما طال الصمت ..تحركت رباب صوب الباب. وقالت بصوت يحمل نبرة رجاء :

- الآن أنت بخير. فهل تسمح لي بالخروج ؟

دار السؤال في عقله للحظات .. هل يسمح لها بأن تخرج ؟!.

لم يجد إجابة واضحة في عقله .. فقط تذكر عبارة قرأها مرة في أحد الكتب التي تحدثت عن الفجوات التي تفصلنا عن عالم الشياطين ، وكانت العبارة تقول :

- (من يساعد شيطان على العبور يصير سيده ، ثم خادمه إلى الأبد) .

لم يفهم مغزى العبارة للوهلة الأولى ..فأشار لها بيديه وهو ما زال على صمته ، أن لا مانع لديه أن تغادر..

تقدمت رباب صوب الباب بحيوية وسرعة ، وعندما عبرت الباب الذي بدأ عنده كل شيء، رأى أمين ما جعل عينيه تفزعان وتكادان تغادران محجريهما .

لقد لمح ثوب رباب يسقط لتظهر عارية ..

لم يكن عراها هو ما جذب اهتمامه ، ولكنه ذلك الذيل المشقوق الذي كان يخرج من قطنيها، ويتحرك في حرية كعربة مشرعة ..

إنه لم يكن يهذي ..

لم يكن يعني هذه المرة.

لقد سمح للشيطان بالخروج والحرية بعد أن كان سيده ..لم يكن عليه أن يسمح لها أن تخرج من منزله وسيطرته ..الآن عليه أن يدفع ثمن جهله .. أن يصير خادماً إلى الأبد .

ظلت عيناها معلقتين بذيلها المشقوق المتماوج في رهبة . والقلق يجتاح أحشائه ويمزق تماسكه .. إن ما يحدث له كثير جداً على حالة قلبه الصحية.. لابد وأن ملك الموت يتهيأ للحضور إليه الآن .

الموت لا يخيفه في هذه اللحظة . رباب هي التي تخيفه . ربما أكثر من الموت نفسه.

تابع خطوات رباب التي تباطأت في قلق .. والتي يعرف جيداً الآن أنها ليست رباب .. رباب ربما تكون قد ماتت بمجرد عبورها الثغرة ..وهذا شيء جيد ويتمناه لها .. يتمنى ألا تكون تعذبت قبل النهاية ..

تباطأت خطوات ذلك الشيء الذي ينتحل هيئة رباب أكثر وكأنه يختبر الطريق خارج الباب ..وقبل أن يختفي تماما . استدار لينظر نحو أمين بعينين متقدتين مشتعلتين.. لا تمتان بصلة لعيني رباب الحالمتين المرحتين ..وقد ارتسمت علي شفتها ابتسامة واسعة شوهتها الأنياب قبل أن يقول :

- سأعود لاحقاً ..سأعود من أجلك .

مادت به الأرض سريعا ..وحاول أن يحظى بفقدان الوعي من جديد .. ولكن جسده لم يطاوعه كعادته .. نهض على قدميه وهو يلهث بإفراط .. جعله يتساءل متى يتوقف قلبه عن التمسك بالحياة ,ويريحه من معاناته .

اقترب من الباب في هلع . الشريان في رأسه ينبض في عنف ..غضب عاتي يجتاحه ..ولكنه مصر ..سيعبر الباب .. سيعبره وليكن ما يكون .. فمن غادرت لم تكن رباب ..ورباب ربما مازالت محتجزة هناك في العالم الذي تسكنه الشياطين خلف الباب .

اندفع كفيل غاضب نحو الباب وعبره ..

فلم يحدث شيء ..

عاد وعبره من الناحية العكسية وبزاوية مختلفة كان يغيرها في كل مرة..

فلم يحدث شيء أيضاً .

مارس هذا الأمر عدة مرات قبل أن يرهق جسده ,و يثوب لرشده ويتوقف .

في نفس اللحظة سمع صوت التمزيق ..وكأن هناك من يكسر أنبوب غازي مختنق بمحتواه .. وسطع ضوء باهر أغشى عينيه ..وعندما عادت قدرته على الرؤية الجيدة .كان كل شيء طبيعي وعلى حالته كما تركه منذ لحظات..كل شيء ماعدا أمراً واحداً ..أن جثة رباب الحقيقة

ظهرت مشوهة في قلب الصالة .. يتصاعد منها الدخان ..وكأن أمين قاطع حفلة شواء كانت تقام على جثتها .

زاغ بصره وتوتر جسده ، وهو يتطلع للجثة المحترقة التي اتخذت وضع غير طبيعي ..يوحي بأنها كانت تحرق حية ..

لقد أصبح على يقين الآن أن من عادت معه .. ثم سمح لها بالخروج .. لم تكن رباب لم تكن هي أبداً ..

وبرغم كل شيء لم يفقد الوعي .

ـــ

وفي المساء وعندما جن الليل ..سمع طرقات متلهفة على باب شقته ..انتفض مفزوعاً من حالة الشرود التي كانت يمر بها .. أفزعته رائحة الجسد المحترق مجدداً.. وكأن حاسة الشم كانت متوقفة لديه طوال الساعات الماضية .. قبل أن يتطلع إلى الجثة المحترقة, والتي خمد دخانها كأنه يراها للمرة الأولى ..

تجاهل الجثة بطريقة مستفزة .. ثم ذهب إلى الباب كالمسير . و فتحه فتحة لا تكفي إلا لعبور رأسه . وعندما وقع بصره على تلك السيدة الباكية .. عرف أنه يقضي الآن أسوأ أوقات حياته ..فعلى باب المنزل كانت تقف والدة رباب الباكية مفطورة القلب . وعلى وجهها كل هلع الدنيا .. وعندما رأته ابتدرته قائلة :

- ساعدني يا أمين لقد اختفت رباب .

لا يعرف لماذا أغلق الباب في وجهها .. ولا لماذا أخذ يبكي دون توقف . ولا لماذا لم يشعر بحافة السكين الحاد تمزق شرايين يده . ولا بدمائه التي تسيل كنهر صغير لتغرق الأرضية..فقط كانت كل مشاعره موجهه صوب العينين المتقدتين اللتين ارتسمت فيهما نظرات تشفي وحشية .. وكان وجهه غارقاً في الدموع ..

ومن خلفه دوى صوت صرير .. ثم تلاشى الباب . وعاد الظلام ليغلف كل شيء بانتظار ضحية جديدة .



إنه بيننا

تساءل :

- هل للشيطان وجود حقيقي ؟!..

أجابه صديقي :

- ألا نشعر بوجوده وسط هذا الشر المطلق الذي يعم العالم .

تساءل :

- ماذا تعني ؟

أجابه صديقه :

- إنه بيننا .

لماذا كف الأطفال عن اللعب والمرح في هذه الحارة ؟!..

أما زالت أخبار اختفاء أصدقائهم تخيفهم ؟!..

لقد مر شهر كامل على الحادث الأخير، ولا أحد يدرك حتى هذه اللحظة حقيقة ما حدث ،أهو هروب مدبر أم اختطاف ؟!..

الشرطة لا تصل بالطبع إلى مثل هذه الأماكن، وهؤلاء المهمشين لن يجرءوا على كسر حاجز عزلتهم، واستدعاء الشرطة، خاصة وأن تجارتهم ليست مشروعة بأي حال من الأحوال .

أخبرني حاتم بأمر اختطاف الأطفال ، مقرراً أن ما حدث هو اختطاف لا شك فيه ، لأن أطفال حارتهم لا يهربون لأنهم رجال .

وحاتم شاب نحيل ، له جسد ضامر ، باع كليته لتجار الأعضاء بمبلغ عشرة آلاف جنيه ،ومن توسط له في الأمر حصل على مبلغ ألف وخمسمائة جنيه كاملة .

صدمني الأمر بالطبع ؛ لأنني اعتقدت أن سعر أعضاء الإنسان ،أغلى من هذه التفاهات . ولكنه أخبرني أنا مافيا بيع الأعضاء البشرية ،هي التي تحدد الأسعار ، وربما كان الأطفال المختطفين ، بعض ضحاياهم .

تابعت الأطفال بعيني وهم يتحركون بحركتهم الطقسية الغريبة يقلب الشارع شبه المظلم، فلاحظت شيئاً عجيباً جديداً !!.

لقد شاب شعرهم جميعاً، ربما تختلف درجات الشيب من طفل لآخر، ولكنه في النهاية يغزو كل الرءوس دون هوادة .!!

وجوههم جميعاً ترتسم عليها ملامح من خاص تجربة عمره ، فضاعت طفولتهم وبهتت أحلامهم الصغيرة .

- "الأمر مخيف فعلاً ولا يمكن السكوت عليه ".

قلتها لحاتم ونحن نجلس سوياً فوق سطح المنزل ، فابتسم ابتسامة صفراء ، وهز رأسه بكل حكمة وقال :

- " الأطفال أصبحوا مخيفين بما فيه الكفاية هذه الأيام ".

لم أستوعب منطقه لأول وهله . ولكني جاريته في الكلام وقلت :

-" إنهم يخفون شيئاً ما . ملامحهم الطفولية تنوء بحمل كبير . هناك سر ما يثقل كاهلهم ويجعل ملامحهم وتصرفاتهم العربية . أقرب إلى كهول في أرذل العمر".

هز كتفيه دون تعليق .فتنهدت في قوة . ثم قلت له بقنوط :

- " ألم تلاحظ ما لاحظته أنا . ألم يلاحظ أي من الآباء ما يحدث لأبنائهم .هل أصابهم العمى جميعاً ؟!".

ابتسم وهو يشعل نصف سيجارة كان يحتفظ بها داخل جيب معطفه العلوي الرث . ومج منها عدة أنفاس قبل أن يقول:

- " دع الخلق للخالق . ولا تتدخل فيما لا يعنيك ".

نظرت نحوه بحدة وسألته بسرعة وانفعال، وكأني أخشى أن يهرب السؤال من عقلي :

-" إذا أنت تعلم السر؟!".

زم حاجبيه في خبث ومن منخاريه خرج خطي دخان رماديان . وقال:

-" أنا لا أعرف أي شيء . الأطفال عندك . لما لا تسألهم ؟!!".

لم تكن صلتي بأهل المنطقة جيدة . ليس لسوء بي أو بهم بالطبع . ولكن لكوني وافداً جديداً على المكان لا أكثر ولا أقل . فلم أتعرف على

أحد منهم إلا على حاتم . الذي ساعدني ذات يوم في تركيب طبق الاستقبال الهوائي (الدش) فوق سطح المنزل : ولأنني خرجت على المعاش المبكر . فلم أجد غضاضة في صحبة حاتم . فبرغم كونه بكلية واحدة . وبأنه يذكرني دوماً بانحدار قيمة الإنسان .إلا أن ما يشدني نحوه . حديثه الممتع الذي لا ينقطع .

لم يرتح ابني وليد للمكان . فبعد أن فقد والدته لم يكن مستعداً بعد ليفقد أصدقائه والبيئة التي نشأ فيها .كان البيت الذي سكنت فيه مؤخراً . قديماً. ولكنه كان نظيفاً وتدخله الشمس باستمرار . وكان أكبر حجماً من منزلنا القديم الضيق . ولكن وليد لم يكن مرتاحاً له أو سعيداً به بأي حال من الأحوال.

لم يكوّن وليد أي صداقات . وهذا أقلقني في البداية .وعندما صارحته بالأمر قال :

- " إنهم مخيفون يا أبي . مخيفون جداً ".

أزعجني رده في البداية . ولكني مع الوقت . بدأت ألاحظ ما كان يتحدث عنه .

المكان من حولنا هادئ جداً . لا يوجد الصخب المعتاد لمثل هذه المناطق .الكل يتبع نفس الطقوس في النهار . وما إن يدخل الظلام حتى تغلق الأبواب وتختفي الحياة من الشارع .

الأطفال أول من يستيقظون وآخر من ينامون .

عرفت أن في الأمر سر . فقررت أن أتكلم مع حاتم ، وكان ما كان .

هناك شيء غامض وغير طبيعي يحدث . ولن يرتاح قلبي ولن أمن على وليد حتى أكتشفه .

تتبع الكبار لم يأت بفائدة . فلا مناص من تتبع الصغار.

***

الفضول قتل قططاً كثيرة ؛ فهل مازال يمارس هوايته، ويصر على قتل المزيد من القطط ؟!..

في السادسة دخل الظلام وفرد ردائه المزدان بالنجوم في سماء المكان ، ومع انسحاب آخر خيط للضياء . أغلقت الأبواب .وبدأ الصغار يظهرون في أنحاء الحارة، وكأن الأرض تلفظهم من قلبها .

تحركوا جميعاً بنفس حركتهم الطقسية الغريبة، والتي تشبه العروض العسكرية . اجتمعوا في دائرة . ثم تحدثوا في همس .

حدثت مشادة بينهم وبين بعضهم . ومن مكاني رأيت اكبرهم وأكثرهم انفعالاً . يشير نحو نافذة شقتي وعلى وجوههم جميعاً ارتسمت نظرة شر مخيفة . وترت أعصابي وجعلت قشعريرة باردة تتسلل إلى عمودي الفقري.

وعلى الفور تبدل تفكيري تماماً ..لا أعتقد أن من يحملون مثل هذه النظرة الشيطانية . يمكن أن يتم خطفهم . إنهم المسئولون عن الأمر بطريقة ما .

أشعل أحدهم شمعه . ثم وضعها فوق ما يشبه الشمعدان المصنوع يدويا وبسذاجة مبالغ فيها، وكأن من صنعه طفل . لتأخذ الدائرة في الاتساع من حولها قبل أن يسود الصمت؛ لتليه صرخة غاضبة ممتزجة بعويل مخيف .

صرخة مخلوق ما غاضب .

صرخة تجمد الدماء في العروق .

صرخة من تحت الأرض .

صرخة مكتومة ولكنها شريرة . صرخة تشم منها رائحة الخذلان والغضب المستعر . وربما لم أكن لأسمعها لولا الصمت الشامل الذي غمر المكان بعد إشعال الشمعة مجدداً . والتي انطفأت مع دوي الصرخة .

حاولت أن أحدد مكان انبعاث الصرخة بدقة . إلا أن الأمر كان بالغ الصعوبة . وسط الضوء الخافت الذي يشع على حياء من الشمعة، وعامود الإنارة البعيد .

جاهدت بعيني ولكني لم أستطع أن أحدد إلا مكان بالوعة الصرف القديمة . فربما كان الصوت أتيا من هناك ؟!.

عاد الصمت العميق المتوتر للأعصاب من جديد ليضرب بجذوره في أنحاء المكان . وعلى وجوه الأطفال. الذين شاب شعرهم ،ظهرت

علامات خوف مريع ، وانتقل الخوف كالعدوى إلى نفسي ، فارتفعت دقات قلبي ، وغمرني عرق غزير.

الأمر كله غير طبيعي تماماً !!.

هناك شيء ما شرير يحدث في المكان ، شيء ما يسيطر على الكبار ويستعبد الصغار.

شيء لابد من كشفه في أسرع وقت .

دوى الصوت من جديد ، أكثر قوة وأعلى غضباً ، حتى أني لمحت من مخبئي ، أحد الأطفال يبول في ثيابه ، والباقون يرتجفون ، وكأنهم في مهب ريح باردة .

دارت في عقلي أسئلة واسترجعت في ذهني ما حدث منذ لحظات ، ثم توقفت عند إشارة أكبر الأطفال نحو نافذة شقتي ، ووقف شعر رأسي وساعدي.

هل هؤلاء هم من يخطفون الأطفال؟! ولكن لماذا وأين يذهب الأطفال المختطفون ؟!.

عاد صوت العويل مختلطاً بزئير غاضب، ليصطف الأطفال حول بالوعة الصرف الصحي القديمة التي تتوسط الطريق ، وجميعهم يرتجفون وكأن هناك تيار كهربي عالي التردد يسري في أجسادهم الهشة.

إنها بالوعة الصرف القديمة .

لقد كان حدسي صادقاً .

السر المخيف يكمن هناك .

تقدم أكبرهم ليزيح الغطاء المعدني الثقيل الذي يغلق فوهة بالوعة الصرف عن طريق عتلة معدنية ، كان يحملها لهذا الغرض ، ليتصاعد منها بخار كثيف أحمر اللون، وصلت رائحته الكريهة لأنفي ، لتشمل جسدي قشعريرة مخيفة ، وتساءلت بخوف :

- " ماذا يحدث حقا ؟! ماهي الطقوس الشريرة المرتبطة ببلاعة صرف ، ثم لو كانت طقوساً حقاً ، لما لا يشترك فيها الكبار ؟!".

اصطف الأطفال يرتجفون حول فتحة الصرف الكريهة ، قبل أن يتصلبوا جميعا في لحظة واحدة ، ليندفعوا بعدها نحو العمارة التي تحتوي شقتي ، وكأنهم تلقوا جميعا أمر واحد في ذات اللحظة.

تجمدت في مخبئي للحظات قليلة ، ليصيبني الفزع بعدها ، فاندفعت نحوهم لأعترض طريقهم ، وأقطع عليه الفرصة للوصول إلى المنزل .

وقبل أن أخطوا خطوة واحدة ، شعرت بقبضتين من حديد ، يقبضان على ذراعي من الخلف ويكبلاني ، وعندما نظرت حولي رأيت الكبار وقد ظهروا أخيراً .

وقبل أن أقوم بأي رد فعل ، هوت الضربة العنيفة على رأسي ، وقبل أن أفقد الوعي ،صرخت باسم ابني وليد ، الذي يغفو نائماً في غرفته ، ولا يعرف الخطر المروع الذي يهدده

***

مصلوب أنا على حائط خشبي مليء بالنتوء ، مسلسل من رأسي لقدمي . لا أعرف ما يحدث ، وأتوقع كل الشر.

صوت ترانيم أو غناء غير واضح : يأتي من حناجر غير مهذبه، يبدو وأنها لم تكن قد مارست الغناء من قبل يصفع أذني دون هوادة .

هكذا استيقظت من إغماءتي ، في وضع لا أحسد عليه .

الرؤية شبه غائمة ، البرد يجمد أطرافي ، وأماكن القيود ترسل رسائل مؤلمة إلى عقلي طوال الوقت .

الرؤية تصفو تدريجياً ، والألم يتصاعد ولكنه محتمل .

ها ذا أنا ألم بما حولي ، وإن كان الصداع يمزق خلايا مخي .

لم أكن مقيداً إلى حائط خشبي كما اعتقدت في البداية ، بل مقيد إلى عربة كارو تقف بصلابة على إطارين مطاطين ، وعلى بعد مترين رأيت وليد مقيد كالشاه ، وملقى فوق الأرض الترابية دون اهتمام،وعيناه محتقنتان بالدموع .

الأطفال يحيطون بفتحة الصرف في انتظام ، وعلى وجوههم نظرة ترقب ، ومن قلب الفتحة تتصاعد الأبخرة كريهة الرائحة في قوة

الكبار متواجدون في دائرة أخرى أكبر حجماً تحيط بدائرة الصغار ، ولكنها تبتعد عنها قليلا ، وكأنهم مجموعة من الحرس .

المشهد غريب أكثر منه مخيف ، خاصة مع مظهر الكبار الشاذ ، فمنهم من يرتدي جلباباً منزلياً، ومن يرتدي سترة رياضية، وآخر يرتدي منامة مخططة ، حتى النساء مصطفات بقمصان النوم العارية ، وكأن الاستدعاء جاءهم مفاجئاً ، وحاسماً فلم يتمكن الجميع من ارتداء الثياب المناسبة .

منظر مقزز ويوحي بفقر شديد في الخيال ، لماذا لم يرتدوا زياً موحداً كما في أفلام الرعب المحترمة ؟!

ربما هذا هو الشيء المنطقي ، لمن يقوم بطقوس شيطانية حول بالوعة للصرف ، ولكنه في النهاية يظل مخيفاً .

أما الشيء الأكيد والواضح والمرعب أنهم جميعاً مغيبون.

تلك النظرات الزجاجية الخرساء ، تظلل كل الوجوه .

لا أعرف كيف تسيطر عليهم هذه القوى الغامضة ؟! ولكن الواضح والجلي أن تأثيرها كاسح ، وربما كان لهذه الأبخرة المتصاعدة تأثير مساعد.

الخوار يتصاعد من قلب الفتحة ،وتتزايد حدته في كل لحظة منذر بهول قادم ، وتيرة الغناء تخفت ، ثم تتحول لكلمة غير مفهومة تتردد على فترات متقطعة إلى أن يسود الصمت تماماً ، فتلتحم الدائرتان .

وبعد فترة من الصمت العميق ، ومن قلب الظلام ظهر حاتم بهيئته النحيلة وبعرجه الملحوظ.

لن أقول أن الأمر كان مفاجئاً ، ربما كان غير متوقعاً ، ولكنه لم يفاجئني أبداً .

تقدم حاتم صوب وليد بخطوات وئيدة حذرة، وكأنه يسير فوق عشب ويخشى أن يسحقه ، جاراً ساقه العرجاء خلفه .

صرخت أناديه .

أناشده .

أستعطفه .

ألعنه .

دون أن يستدير حتى لينظر نحوي .

أشار إلى الأطفال ، فحملوا جسد وليد الذي أخرسه الخوف ، وقبل أن يلقوه في فتحة الصرف تلاقت أعيننا ، واخترق قلبي سهم مشتعل .

قذف الأطفال وليد دون رحمه إلى فتحة الصرف المظلمة ، لتبتلعه في لحظة واحدة ، ولتدوي من بين شفتيه ، صرخة أخيرة ، تبعها صوت خوار ظافر ، تلاه صوت تمزيق وطحن .

شلت ساقاي .

هل ما حدث قبل لحظات حقيقي ، أم إنني أخوض غمار كابوس مرعب؟!.

الوحش بداخل فتحة الصرف يلتهم فلذة كبدي .

الوحش يلتهم ولدي الوحيد .

لا.. لا ..لابد وأنه كابوس، لا يمكن أن تنتهي حياة ولدي قبلي ، وبهذه البساطة.

إن الأب الذي لا يرثه ابنه لا يمكن أن يعيش حياة طبيعية أبداً ، هذا لو كتبت له هذه الحياة .

صرخت أسبهم وألعنهم ، وألعن حقارتهم .

ومع تحول الدخان إلى اللون الأحمر ، استحال ضوء عمود الإنارة الساطع لنفس اللون ، وأطلقت صرخة ملتاعة لعنت بها عجزي .

وقبل أن أفقد وعي ، شاهدت نافورة الدماء التي انطلقت من فتحة الصرف ، لتغمر الصغار والكبار ، اللذين صرخوا في انتشاء .

دماء وليد .

***

قال حاتم وهو ينظر نحوي -

- " ألم أحذرك من مغبة ، التدخل فيما لا يعنيك ؟!".

بصقت في وجهه في قوة ، ثم صرخت في وجهه متسائلاً .

- " أين ولدي أيها الملعون ، ماذا فعلتم به ؟!".

زاغت عيناه للحظة ، وكأنه تحت تأثير مخدر ما ، ثم دوى صوته خاشعاً، وكأنه يؤدي صلاة ما ثم قال :

- " لقد نال ابنك الخلود وصار جزءاً من كيان ملاك الظلام إنه يؤدي رسالته التي خلق من أجلها ، ليعم الخير هذا العالم "

نظرت نحوه غير فاهم ، وغير مصدق ، ما أسمعه من بين شفتي هذا المخبول ، وصرخت فيه متسائلاً برغم معرفتي التامة للإجابة :

- " هل قتلتم ولدي أيها الأوغاد ؟! هل ألقيتموه حياً وسط القذارة ؟! لماذا حرمتوني من فلذة كبدي أيها الشياطين ؟!"

برغم ما رأيته بعيني ، إلا أني كنت متمسكاً بأمل غير موجود ، ففكرة فقدان ولدي بهذه الطريقة الهمجية لم تكن مقبولة عندي أبداً ، ولكن رد حاتم هو الذي قتل كل الأمل في قلبي :

- " لا تقلق يا صديقي ، فستلحق به خلال أيام قليلة ".

صرخت في خوف ، في غضب ، في ألم :

- " من أنتم أيها الملاعين ؟! أأنتم بشر مثلنا ؟!".

ابتسم في فخر ، وزاغت عينه للحظة ، وكأنه يتلقى هاتفاً ما قبل أن يجيب :

" نحن بشر بالطبع ، ولكننا لسنا مثلكم ، نحن حاملي الرسالة ، نحن من هبط علينا ملاك الظلام من السماء ، ليهبنا الخلود ، نحن خدمه وأسيادكم ، وملوك الأرض القادمون ".

أطار حديثه المجنون صوابي ، فتمنيت لو كنت حر الحركة ، لأمزقه بيدي ، فقلت وقلبي يعتصر:

- " أي خلود هذا الذي تنشدوه ، بقتل الأطفال أيها السفاحين ؟! وأي شيطان هذا الذي يغويكم ، ويسوقكم أمامه بعيداً عن الصراط المستقيم ؟!.

ابتسم ابتسامته الكريهة المعتادة ، وقال بنفس الأريحية ، والإيمان المطلق :

- " غداً عندما تقابله ، ستؤمن به وبرسالته الكونية ، وستتمنى لو تذوب في ضياءه المقدس ".

صمت قليلاً ثم استطرد :

- " آه لو رأيته عندما أقبل أول مرة ، يمتطي حصان الضوء ، وفي يده صولجانه الثلاثي المشتعل بالنيران ، لا تتعجل الخير ، هي أيام قليلة وتقابله بل وتصبح جزءاً منه ، وتنال الخلود".

انصرف حاتم ، وتركني وحدي نهباً للحزن وللأفكار الشنيعة ، ومع مرور الأيام بدأت سحب الحزن تتوارى خلف جبال الخوف ، وبطل مصيري المظلم من خلف غيوم الأيام .

إنني أنتظر الموت على أيدي مجموعة من عبدة الشيطان ، الشيطان الذي هبط من السماء يمتطي حصان الضوء .

يا إلهي ..

كيف لم أنتبه من قبل ؟!.. الخوف أنساني معلومات مهمة قد تزيح الستار قليلاً عن حقيقة الشيطان الملقب بملاك الظلام .

لقد قرأت في جريدة مضى عليه عدة شهور خبرغريب . لم أواليه وقتها أي اهتمام لاعتباري الخبر مجرد حشو مهر لعمود في الجريدة لم تستطع حشوه بغيرما أو إعلان دعائي .

كان نص الخبر كالتالي :

" يقول الدكتور أحمد عصام، المشرف على مرصد القطامية الفلكى لـ"اليوم السابع": المنطقة العربية كلها لا تملك وكالة فضاء مثل ناسا. ونحن فى مصر يجب علينا التفكير فى إصدار وكالة أو هيئة فضائية مصرية من نواة هيئة الاستشعار عن بعد، ولكن هذا المشروع يحتاج إلى تكلفة عالية جداً.

وأضاف "عصام": مصر تحاول رصد كويكب (٢٠١٢DA١٤)الليلة والذى سيكون فى أقرب حالاته لمدار الأرض، ولكن لا يعتقد الفلكيون أنه سيحدث تأثيراً مدمرا على الأرض، مستبعدا إمكانية اصطدامه بالمنطقة العربية مثلما حدث فى روسيا.

وعن أحدث وسائل صد النيازك، أكد المشرف على مرصد القطامية لفلكى، أن علماء الفلك كانوا يرسلون صواريخ للنيازك قبل اصطدامها بالأرض قديماً، ولكن هذا كان يخلف نيازك صغيرة تنتشر فى مساحة أوسع وتسبب دمارا أكبر. لذا فالطريقة المثالية التى يتبعها علماء الفلك الآن هى إرسال كتلة حديدية - فى حجم الغسالة – لضرب النيزك بها وإبعاده عن الأرض تماماً، وذلك قبل سنة كاملة من قدومه.

ولفت "عصام" إلى أن مصر لا تملك حتى الآن سوى ثلاثة كاميرات لرصد الفضاء منهم واحدة متوقع تركيبها فى أسوان واثنان فى القطامية وحلوان، ولكن حتى هذه الأجهزة والكاميرات ترصد وتصور ما يحدث فى الفضاء فقط، دون أن تكون قادرة على صد أى كارثة مشابهه لما تعرضت له روسيا. ".

هل هبط الشيطان حقاً من السماء . ليمهد لغزو الأرض والتبشير بدين شيطاني جديد ؟!.. هل لكل هذا علاقة بالنيزك الذي قرأ عنه؟ .

هل هو شيطان حقاً . أم وحش دموي من كوكب أخر؟.

هل ينجح مخططه الدموي . وكم طفلاً سيقدم كأضحية قبل أن يعلن عن خروجه ؟!

هل سأشهد هذا اليوم ؟!

أم سألحق بابني ؟!

هل حقا هناك شيطان . يختبئ في بالوعة الصرف ؟!

لم تكن هناك إجابة فانغمست في أحزاني.

بكيت على نفسي كثيراً . وعلى وليد أكثر.

—

وبعد عدة أيام أخبرني حاتم أن الموعد اقترب . ثلاثة أيام ويختفي القمر، لأحظى بشرف لقاء ملاك الظلام .

ناولته الأوراق التي انتهيت من كتابتها . تلك الأوراق التي منحني إياها لأسرد القصة كلها على سبيل التسلية . وكمعروف أخير يفعله لصديق سابق مشرف على الموت .وكتبتها أنا تزجية للوقت و لعلها تسقط بالخطأ أو الإهمال في يد من يهتم ويحقق في الأمر. كما أرفقت خريطة تحدد موقع الشارع وبالوعة الصرف . التي أتمنى أن تفيض فتقتل الشيطان بداخلها .

أرجو ممن يعثر على هذه الأوراق . أن يحذر الجميع . ويخبرهم . أن الشيطان يسكن في بالوعة الصرف، في أحد شوارع القاهرة .

وأنه بيننا .

القلب

يقول العاشق .

- وماذا يملك المرء في الحياة أغلى من قلب محبوبه !!.

—

إنها جريمة بشعة لم تعتد مثلها في مصر من قبل . فالقاتل بعد أن طعن الجثة عشر طعنات نافذة . مثل بها وانتزع القلب بوحشية . القلب الذي اختفى دون أن يتم العثور عليه حتى الآن .

الغريب أن الزوجة تصر على أن الزوج لم يمت - برغم تأكيد الطب الشرعي على أن الجثة الموجودة في مشرحة المستشفى هي جثته - وأنه يحوم حول المنزل في فترات متفاوتة . وهذا ما جعل الشرطة تضع بعض المخبرين السريين حول المنزل في انتظار ظهور الزوج المزعوم حسب ادعاءات الزوجة غير المنطقية . أو المجرم الذي يحاول أن يعبث بالزوجة كما يعتقد صديقي وكيل النيابة .

لذا تكرر المشهد التالي عدة مرات .

الزوجة تخرج من النافذة . تشير نحو الفراغ بفزع . وتصرخ كفاطرة بخارية قديمة توشك على السقوط من فوق الجسر وتقول :

- إنه هناك ..هنااااااك .

المكان الهادئ حول المنزل يتحول في لحظة واحدة إلى خلية نحل . الهرج والمرج في كل مكان . التعليقات الساخطة من المخبرين السريين . ليخرج التقرير في النهاية:

- لا أحد هناك .

الموقف يتكرر عدة مرات . حتى مل منها الجميع . وعندما عرضت الامر على صديقي وكيل النيابة مرة أخرى . أعمل فكره للحظات . ثم خرج من الأمر بتفسيرين .

إما أن أعصابها تدمرت من هول الصدمة . خاصة وهي تكن لزوجها ذلك العشق النادر الذي تحاكى به الجميع . وفي هذه الحالة هي بحاجة للعرض على طبيب نفسي . أو أن لها يد في قتله وبعض الضغط قد يأتي بنتيجة حقيقية . ويفك طلاسم اللغز.

راق لي التفسير الثاني بشدة . خاصة وأن حالة الزوجة المتدهورة . لم تسمح بأن يجرى معها تحقيق حقيقي حتى هذه اللحظة .

وبعد منتصف الليل . أحضروها إلى في مكتبي . منظرها يثير الشفقة بالفعل . ولكن كم من قاتل ظل لآخر لحظة يرتدي زي الحمل. قبل أن يسقط بين أيدينا في النهاية لينال جزاءه العادل.

وسائل الاستجواب العادية . لم تأت بنتيجة .

ووسائل الضغط أيضاً .

صديقي وكيل النيابة على الهاتف . يمنحني طرف خيط..إنه يحثني أن اعزف لها على وتر الخيانة .وهي فكرة بسيطة لا أعرف كيف أغفلها عقلي ؟.

- لماذا غدرتي بزوجك ؟!

- لماذا خنتي حبه ومشاعره ؟!..

- كيف تقابلي حبه الصادق لكِ بهذا الجحود والنكران ؟!..

- أي سيدة أنت ؟! بل أي شيطان آثم يسكن قلبك ؟!!..

ملامح وجهها تتغير . صدرها يعلو ويهبط في غضب . والجنون يظهر في جحوظ عينيها . يبدو أن ما بذرته في الدقائق السابقة سيجني ثماره سريعاً .

شفتاها تتحركان ثم تصمتان . لابد بأن داخلها يغلي كالمرجل .

ملامح المعاناة تظهر على وجهها . وأنا لا أتوقف لحظة عن وصمها بكل الصفات المشينة .إن جسدها يهتز بعنف . وكأنها دمية خشبية في يد طفل صغير لا يألو جهداً عن تحطيمها .

اللحظة الحاسمة تقترب . لقد رأيت هذه اللحظة . في تحقيقات كثيرة سابقة .

وفي النهاية استسلمت .

هل هو الحزن ؟

هل هو الغضب ؟!

هل هو الخوف ؟!

ربما هو مزيج من مشاعر متفاوتة دفعتها إليها دفعاً. فهاهي تنفجر باكية . لتغرق دموعها وجهها وثيابها . قبل أن تندفع في قوة لسرد قصة عشقها لزوجها . وكيف أنه بعد كل سنين العطاء والتفاني،

اكتشفت خيانته . وكيف أنه دفعها بلا مبالاته إلى قتله كي لا تشاركها . أو تستحوذ عليه أخرى !!.

لقد سقطت بسرعة كبيرة . فلم تتحمل أن تشكك في حبها لزوجها . وقررت أن توصم بالقتل على ألا تتهم بالجحود والنكران .

إن مشاعر النساء هذه غير مفهومة تماماً لي .

نحن لم نكن نملك ضدها أي دليل . كما أني لم أضغط عليها لفترة كافية . فلو صمدت هذه المجرمة لنصف ساعة أخرى لفرت بجريمتها .

ولكن يبدو أن الذنب كان يثقل كاهلها . وهذا لا يعنيني الآن .فهناك سؤال لابد وأن تجيب عليه على الفور كي يرتوي فضولي .

- لماذا مثلتي بجثته ؟! لماذا نزعتي قلبه ؟ وأين هو هذا القلب ؟!.

يا للجنون .

- ماذا تقولين أيها المرأة ؟!

إن قلبه ملكك . ولن تسلميه لأحد .

- كفاكِ عبث إن ادعاءك الجنون لن يفيد في شيء . فاعترافك موثق بالصوت والصورة .

هاتفت صديقي وكيل النيابة لأستشيره في الأمر مجدداً .بعد أن يئست منها . فأخبرني بالأمر الذي لن أستوعبه أبداً:

- لقد قتلته زوجته ، لأنها أرادت أن تحتفظ بقلبه لها وحدها وإلى الأبد ، لذلك فلو مزقتموها لربما لن تعترف بمكان القلب المنتزع ، إنه ملكها وحدها.

لم يعجبني تفسيره أبداً . فأنهيت المكالمة ، وأشعلت سيجارة جديدة قبل أن ألتفت إلى تلك المرأة الباكية وأسألها بعنف :

- أين القلب ؟!!!

قواعد الطريق

القاعدة الثابتة في الحياة :

- أنه لاتوجد قواعد ثابتة .

—

النصيحة التي لا يتوقف صديقك نبيل عن ترديدها دوماً . وهو في هذه النقطة يملك حكمة الشيوخ والقرون، وإن كنت تراه أنه يبالغ في حذره :

- " لا تتوقف للغرباء في الطرق المهجورة ، خاصة لو كان الليل يغطي الدنيا بردائه الأسود"

وعندما تستفسر منه أكثر ، يخبرك أن قصص كثيرة انتهت على أسفلت الطريق ، مع وجود جثة غارقة في الدماء .

ثم يمط شفتيه في استياء ويضيق بؤبؤ عينيه قبل أن يقول :

- " لسنا في زمن الفرسان ، والشهامة صفة الحمقى التي يستغلها اللصوص هذه الأيام ، لا تسمح لسذاجتك بأن تسقطك في فخ لتصبح مجرد خبر مهمل في الجريدة الرسمية ".

أنت تنطلق بسيارتك مندفعاً في الطريق الخالي بين الحقول تشعر بقلق غريب . وخيالك المتسع كمجرة . يرسم لك ألف نهاية لهذه الليلة ، مع شعورك البالغ بالإرهاق ..القمر توارى خلف الغيوم التي تنذر بليلة ليلاء. لابد أنه ترك عمله ليغفو في مكان ما . مؤشر الوقود

يخبرك بأن محطة الوقود أصبحت مطلب هام وعاجل . ولكن أين تجد واحدة الآن في مثل هذا الطريق المنعزل .

الراديو يصدر تشويشاً غريباً ، فيضطرك لإغلاقه . تخرج لفافة تبغ وتشعلها فهي تساعدك على مقاومة النعاس . يجب أن تخرج من هذا الطريق عبر المعهد قبل أن تفكر في إيقاف السيارة على جانب الطريق . والاستسلام لغفوة لأن جسدك لن يطيعك بعد لحظات .

لقد غادرت عرس صديقك الوحيد منذ وقت قصير ، في قريته التي تقع بالقرب من الفيوم ، كانت ليلة رائعة ، برغم أن عقلك لم يستوعب الأمر بعد ، فأخيراً استسلم " فالنتين" الشلة لمصيدة الزواج ، إنها حادثة تهتز لها القلوب في الصدور وتدعو للبكاء لوقت لا يعلمه إلا الله. فهذا التحول الذي أصاب مجدي ، نجم شلتنا ، يمهد لأي تغير آخر قد يحدث في الكون .

الشيء الغريب في الأمر والذي يدعو للتساؤل ، وربما مع بعض الحماس لشق جمجمته واستخراج عقله لتشريحه ، هو نوعية الفتاة التي تعلق بها قلب مجدي .

فهي فتاة عادية جداً. متوسطة الجمال ، أقرب للبدانة ، ولا تقترب أبداً من تلك الصورة التي صدع رءوسنا بها ، عن " مس إيجبت "التي أنجبتها أمها ، قبل أن تضعها في علبة من المخمل لتخرج جوهرة نادرة متمردة ، تنتظر قدوم مجدي ليتزوجها .

لقد هدمت هذه الزيجة في عقلي تلك الصورة الأسطورية التي صنعتها لمجدي على مدى السنوات التي عاصرته فيها ، وبرغم ذلك فأنا سعيد من أعماق قلبي لأنه تزوج بمن استطاعت أن تغزو قلبه . فربما هناك بداخلها شيء عجزت عيني القاصرة عن رؤيته ، ولمحته عين مجدي الخبيرة ، ليمنحها مقابله دقة حياته .

الطريق في الليل يبدو مختلفاً ، وأكثر طولاً وعدائية .

بعض قطرات المطر تداعب زجاج سيارتك ، إحدى المساحات معطلة ولكن الأخرى تقوم بعملها في كفاءة ، فلا داعي للقلق .

الأرض الزراعية تمتد على الجانبين ، وصفوف الذرة تمتد إلى ما لانهاية وسط ظلام دامس لا يخترقه إلا ضوء السيارة وبعض الأعمدة .

الظلام الممتد يشعرك كم أنت وحيد .

هدير المحرك يمتص وعيك .

جفونك ثقيلة جداً ، وتفتحها بصعوبة .

لا لن تستلم للنعاس الآن .

بضعة كيلو مترات أخرى ، وتخرج إلى الطريق الرئيسي ، المكان هنا خطر ، فالطريق ضيق ، ويتسع لسيارة بالكاد واستيقاظك على حادث قد يكون الأخير.

تركز في الطريق ، لتؤكد المقولة أن التركيز الشديد يماثل قلة الملاحظة وبعد عدة دقائق تلاحظ على البعد جزء من الظلام يتحرك بطريقة غريبة .

إنها الهلاوس وربما رذاذ المطر هو ما يصنع الصورة الخادعة .

تفرك عينيك عدة مرات ، لتتأكد مما ترى ، هناك بالفعل من يشير لك ، وليس وهم ليلة شتوية مرهقة.

فكرة الأشباح تداعب عقلك ، وتستولي على كيانك برغم عدم إيمانك بهذه الأشياء .

تقلل من سرعة السيارة لأقصى حد ، وقد طار النوم من عينيك ، لابد أن جسدك يضخ كمية كبيرة من الأدرينالين ، لا تعرف لماذا تذكر صديقك نبيل ، ما هو الشيء الذي حذرك منه ؟!.

لا تذكر أبداً ، ولا تقلق نفسك بالأمر.

تنظر نحو ذلك الشخص الذي يشير لك في محاولة لاستجلاء هيئته وقد اقتربت من مكانه أكثر ، إنه يشير بفزع واضطراب وكأن هناك من يطارده وينتظرك أن تنجده .

تصل إلى المكان فتتغير رؤيتك للموقف تماماً ، إنها امرأة لا حول لها ولا قوة ترتدي عباءة سوداء تجعلها قطعة من الظلام الممتد ، المطر يهطل بهدوء وثقة ، فيثير شفقتك أن تراها غارقة في المياه وكأنها خارجة من

قلب الترعة القريبة . كما أنها جميلة . والتصاق الثوب المبتل بجسدها النحيل يجعلها فاتنة

لا تعرف كيف ميزت كل هذه الأمور بقلب هذا الظلام ؟! لابد وأن مصباحا السيارة يعملان بكفاءة . أو أن نظرك هو من تحسن فجأة . ولسذاجتك لا يقلقك الأمر.

صوت نبيل يدوي في عقلك من جديد . ولكنك لا تنصت إليه برغم تذكرك لنصيحته الآن . فلا يوجد أسفلت هنا لتتمدد عليه جثتك .

الصوت في عقلك يتردد من جديد . لا تتوقف أيها الأحمق . فالجثث على الطرق الزراعية الترابية . تشبه تماما الجثث على الطرق المسفلتة .

لكنك تصر وتتوقف . إنها حماقة كل أبطال القصص المماثلة التي توردهم مورد التهلكة .

اللحظات القادمة حاسمة بالفعل . فحسب سيناريو نبيل لابد وأن يخرج الآن باقي أفراد العصابة من قلب الذرة . أنت تنتظر هذا بحماقة من يضع قبضته في قلب النيران . ليرى هل ستحترق برغم أن من سبقه لمثل فعلته يجلس أمامه ويتلوى مع يد متفحمة ؟!

ولكن لا شيء يحدث ؟! أنت عبقري آخر لمن ينصت للنصيحة . ثم إن نبيل يخطيء أيضاً أليس بشراً ،والمرأة التي أمامك رائعة الجمال .تمتلك ذلك الجمال الفطري الذي يميز الفلاحين والذي يدير الرءوس

.جمال بكر كقطرة ندى . فوق زهرة في نهار ربيعي .جمال سحرك من اللحظة الأولى .

من من البشر لا يهب لنجدة مثل هذا الجمال . ليس طبيعياً أبداً . وربما يناسبه ذلك الرداء مغلق الأكمام .

والجمال مخدر

لذلك انت تفتح الباب المجاور . وبدون تفكير تجلس المرأة بجوارك . المفروض أن تخافك لا أن تخافها أنت .

المرأة تنظر نحوك وتبتسم فتبادلها الابتسام .

تشعل ضوء السيارة الداخلي . والذي كان يعمل منذ لحظات . ولكنه لسوء الحظ لا يعمل الآن.

صوت ذئب يعوي ثم يتبعه صوت كلب ينبح . ولكن أذنيك لا تنصتان إلا لصوت قلبك المدوي .

الأمطار تزداد حدتها . ومازالت ابتسامتها على وجهها تضيء كالقمر .فلا داعي للقلق من أي شيء .فهذه الابتسامة تستطيع أن تصلح أي خطأ في الكون .

لا خطر هناك إذن .

إن نبيل يبالغ كالعادة . وعروسه هي الدليل الأكبر على هذا الأمر.

وفي هذه النقطة أنت أحمق تماماً.

من قال أن الشهامة هي نقطة الضعف التي يستخدمها اللصوص ، كان عنده حق . والدليل هو النصل الحاد المغروس في خاصرتك .

الابتسامة لم تغادر وجهها ،ولكنها غادرت وجهك . أنت أحمق أحمق ، تتحجج بأن نبيل لم يوضح أن استراتيجية السطو المسلح قد تغيرت . فهاهم مجموعة من الملثمين يقطعون الطريق بجذع شجرة وفي يد كل منهم فرد خرطوش يستعد لخطف روحك .

وها أنت تكتشف دور السيدة في هذه الخطة المعقدة فهي كانت تحرص على أن يستسلم الضحية بسرعة ، ولا يلجأ لمناورات غير محسوبة .

فمن يستطيع أن يناور ، وهذا النصل الحاد يدميه .

تقف بالسيارة من جديد ، هذه المرة رغماً عنك.

الملثمون يحيطون بك من كل جانب . تخرج كل متعلقاتك وتمنحها لصاحب النظرات الحادة ، ليطلب منك المزيد ، وفي النهاية يستولي على كل شيء .النقود . والهاتف ، والسلسلة الذهبية . المعطف الغالي واستبن السيارة هل سيتركونك .

لا .

أحدهم يركب بجوارك ، ويخبرك أن تقود السيارة حتى الطريق الرئيسي . تضغط على دواسة الوقود بقوة . وقلبك يخفق في عنف . الوقت العصيب مر أخيراً بعد أن ظننت أن الزمن توقف للأبد . تردد

الشهادة مرة إضافية . وأثناء انطلاق السيارة ، تهنئ نفسك على نجاتك.

إن من يخوض المعارك الخاسرة أحمق . وأنت تتمتع بكل الصفات إلا هذه الصفة

الغريب أن المرأة ذات الرداء الأسود ، اختفت بمجرد أن أوقفت السيارة . لابد أنها غادرت عندما تعلقت عينيك بفوهة المسدس المصوب لوجهك .

الآن أنت في موقف لا تحسد عليه . جوارك لص يحمل سلاح قاتل . تقوم بتوصيله للطريق الرئيسي . قلبك يدق في عنف . والأفكار السوداء تدور في عقلك.

طريقة الفرملة المفاجئة . واندفاع اللص نحو الزجاج . لا تصلح إلا للأفلام . خاصة وأن أحزمة الأمان بالسيارة لا تعمل . وسيصبح هناك ضحيتان لا ضحية واحدة .

يأمرك اللص الذي يرتجف أكثر منك ، أن تقف بالسيارة قبل مائة متر من الطريق الرئيسي ، ثم يطلب منك أن تغادر.

تهبط من السيارة لتجد بانتظارك مفاجأة .فعلى البعد تشاهد المرأة ذات الرداء الأسود .واقفة وتشير للسيارة مرة أخرى .

الرعب يتملك قلبك والقلق يغزو وجه اللص .

وقبل أن تهبط من السيارة تسأله عن المرأة ، وقدمك تأبى أن تهبط من السيارة ، فيخبرك بصوت مهتز . إنها هي التي قادتك إليهم ، لذا فهم يقودونك إليها مجدداً ، هذه هي القواعد .

تتساءل في حيرة:

- أي قواعد ؟!

يقول اللص بصوت مرتجف :

- قواعد الطريق .

تتساءل مجدداً ، وعصبية اللص تنذرك بأنه سينفجر في وجهك بعد لحظات :

- هي من ؟!!

يرتجف اللص من رأسه إلى أخمص قدميه ويجيب :

- هي بسم الله الرحمن الرحيم .

أنت لا تصدق ما تسمعه ، لا يمنحك اللص وقتاً إضافياً ، ويدفعك لتسقط خارج السيارة، وصوته يعلو على صوت المطر قائلا :

- الألم لن يكون شديد إلا لو قاومتها ، هي فقط تريد منك طفل ، امنحها الطفل قبل أن يتوقف المطر والا ...

صوته يبتعد مع ابتعاد السيارة ،وتقف أنت تلهث تحت المطر ،وتردد صارخاً دون توقف :

- والا ماذا ؟!

فجأة تسمع حركة تأتي من خلفك ، وتشعر بالأنفاس الحارة تلهب عنقك فتنتفض مبتعداً لتتعثر وتسقط على وجهك ، وسط بركة من المياه الآسنة التي صنعها المطر ، وصوت المرأة يتردد بداخل عقلك :

- والا صرت أنت طفلي .

وتفقد الوعي .

***

بعد شهر كامل ، يقود نبيل صديقك سيارته في نفس الطريق الذي سلكته أنت قبل شهر كامل، الشوق الذي في قلبه لعروسه لو وضع بدلاً عن الوقود في خزان السيارة ، لوصلت إلى المنزل في لحظة واحدة .

يشاهد نبيل المرأة التي ترتدي السواد ، والتي تصطحب الطفل في يدها تشير له ، والمطر يغرق ملابسهما وكل شيء آخر ، ولكنه يلتزم بقاعدته الأثيرة الخاصة بالغرباء ولا يتوقف .

تشير له أنت ودموعك تختلط بالأمطار ولكنه لا يلتفت إليك ، صوتك يبح من النداء عليه ، ولكنه يمضي في طريقه وصورة عروسه تحتل كيانه بالكامل ، تحاول أن تعدو خلف سيارتك ، ولكنك تتلقى صفعة من المرأة التي تقبض على يدك لتدمي مخالبها وجهك. فتنكمش في مكانك وتردد على الفور :

-" أنا آسف يا أمي.. سألتزم بالقواعد....ولن أكررها مرة أخرى ..لن أكررها أبداً" .

- وإلا ماذا ؟!

فجأة تسمع حركة تأتي من خلفك ، وتشعر بالأنفاس الحارة تلهب عنقك فتنتفض مبتعداً لتتعثر وتسقط على وجهك ، وسط بركة من المياه الآسنة التي صنعها المطر ، وصوت المرأة يتردد بداخل عقلك :

- وإلا صرت أنت طفلي .

وتفقد الوعي .

***

بعد شهر كامل ، يقود نبيل صديقك سيارته في نفس الطريق الذي سلكته أنت قبل شهر كامل، الشوق الذي في قلبه لعروسه لو وضع بدلاً عن الوقود في خزان السيارة ، لوصلت إلى المنزل في لحظة واحدة .

يشاهد نبيل المرأة التي ترتدي السواد ، والتي تصطحب الطفل في يديها تشير له ، والمطر يغرق ملابسهما وكل شيء آخر ، ولكنه يلتزم بقاعدته الأثيرة الخاصة بالغرباء ولا يتوقف .

تشير له أنت ودموعك تختلط بالأمطار ولكنه لا يلتفت إليك ، صوتك يبح من النداء عليه ، ولكنه يمضي في طريقه وصورة عروسه تحتل كيانه بالكامل ، تحاول أن تعدو خلف سيارتك ، ولكنك تتلقى صفعة من المرأة التي تقبض على يدك لتدمي مخالبها وجهك، فتنكمش في مكانك وترد على الفور :

-" أنا آسف يا أمي.. سألتزم بالقواعد...ولن أكررها مرة أخرى ..لن أكررها أبداً".

قصص قصيرة جداً

(١)

عندما دق الهاتف ، أجبت على الفور ، وعلى الطرف الآخر أخبرني الصوت المبحوح أن زوجتي الميتة على الباب ، وتنتظر مني أن أفتح !

(٢)

طفلتي الصغيرة ، تعلمت أن تطرق الباب قبل أن تدخل أي مكان . وعندما طرقت باب الثلاجة ، جاءها الصوت من الداخل أن تكف عن إزعاج النائمين.

(٣)

عندما انقطعت إشارة الإنترنت ، وجدت رسالة على المتصفح تطلب مني أن أسمح له بالدخول ، ليعيد الاتصال من جديد . فقطعت الكهرباء عن الكمبيوتر ، وأنا ألعن الهكرز في سري ، لأجد نفس الرسالة على الشاشة السوداء

(٤)

أغلقوا عليه باب آلة الزمن ، وأخبروه أنهم سيرسلونه عبر الزمن إلى المستقبل ، وعندما وصل إلى الزمن المحدد خرج من باب آلة الزمن المنزلق . فشاهد مجموعة من المتوحشين يشوون بشري على سيخ وبجواره آلة زمن محطمة .

(٥)

استيقظت من النوم في عصبية، عندما طرق صغيرها الباب ، ودعته للدخول بصوت حانق وعينان لا تريان ، كان يحمل بين يديه كرة غير محددة الملامح ،ارتدت نظارتها الطبية ، وعندما زالت الغشاوة من فوق عينها ، نظرت في هلع إلى رأس طفلها الرضيع التي تقطر الدماء منها والتي يحملها أخوه في يده، وعندما شاهد الصغير نظرتها الهلعة، ابتسم في براءة وقال :

- لقد بال على نفسه مجدداً ، لم أستطع أن أهشم رأسه كما هددتيه أنت من قبل، فأحضرتها لك ، لتهشميها بنفسك .

(٦)

عندما كتب وصيته ، لم يعرف لمن يعهد بكتبه ، إنه آخر الناجين على سطح الأرض .

(٧)

عندما أخبرتها أنها أفعى ، لم تكن تنتظر رد الفعل المبالغ فيه ، وهي تشاهدها تغير جلدها الميت .

(٨)

نمي الكاميرا تعمل بداخل غرفة نومه ، وعندما عاد وشاهد الفيلم الذي قامت بتسجيله ، رأى الخادمة العجوز تنظف غرفة نومه في نشاط ، ابتسم لوهلة وهو يراها برغم عمرها المتقدم تعمل بتفان

وإتقان، قبل أن يبتلع القلق ابتسامته. عندما مسح بعينيه عرفته، ليجدها مازالت في حالة يرثى له . مع العلم أنه يسكن وحده . أما ما جعل القلق يشع من روحه هو ذلك الصندوق الذي تركته العجوز فوق الفراش ، وكان يصدر منه فحيح مكتوم .

(٩)

كنا وحدنا في الغرفة . نجلس حول ضوء الشمعة الأخيرة بعد عطل محطة الكهرباء الوحيدة في المدينة . عندما دوت العطسة وانطفأت الشمعة . منحتها المنديل لتمسح أنفها ، ولكنها أخبرتني أنها لم تعطس . فأخبرتها أنني كذلك لم أعطس . ولا أعرف من صاحب تلك اليد الباردة التي سحبت مني المنديل .

(١٠)

أصيب اللحاد العجوز بغيبوبة سكر..فدفنوه حياً . وعندما استيقظ مزق الكفن .ولم يخيفه وجوده بداخل القبر. إنه بداخل القبور طوال عمره.وبدأ إجراءات إخراج نفسه دون هلع . فهو يعرف جيداً كيف يخرج من قبر. أراد أن يستريح قليلاً ثم يكمل زحزحة الأحجار المغلقة لباب القبر. عندما فاجأه من يدق على كتفه يستحثه على إنهاء عمله ، ثم ليستريح في وقت لاحق .

(١١)

عندما دق جرس الباب . هممت بفتحه . لكن زوجتي سبقتني وفتحته . كان هناك شرطي كئيب الوجه يخبرها بأن زوجها مات في حادث. اخترقت المقاعد والباب الزجاجي بجسدي الطيفي لأخبره . كم هو أحمق . فأنا مازلت حيا.

(١٢)

تفحصت السكين الحاد بعينها ، ثم قبضت عليه بيدها وأدارته في الهواء عدة مرات . ثم أعادته لمكانه فوق الرف. لن تشتريه إنه شديد الخطورة . غادرت المكان ولم تلتفت لليد صاحبة القفاز التي دست السكين وسط أشيائها . وفي اليوم التالي وجدت نفسها في المخفر ، والشرطي يخبرها بأنها متهمة بجريمة قتل من الدرجة الأولى، وأن بصماتها على سلاح الجريمة .

(١٣)

تركت صغيرها في السيارة لدقيقة واحدة ، كي تشتري علبة تبغ ، وعندما عادت لم تجد السيارة . وبالقرب من مكانها كانت هناك آثار دماء

(١٤)

التقرير الأخير للطبيب ، أنت مصاب بمرض عضال ، ولم يتبق لك في الحياة إلا أسبوع واحد وها أنت تستيقظ من الغيبوبة بعد مرور ستة أيام تتساءل عن تاريخ اليوم .

(١٥)

نظرت من عين الباب السحرية لترى من هو طارق الباب بعد منتصف الليل ، كانت تقلقها أخبار السفاح .إنه قاتل متسلسل عشوائي . دعمت الباب برتاج سداسي قوي ، كما أنها أقلعت عن عادة فتح الباب دون أن تسأل من وراءه. الآن هي تنظر من العين السحرية ليصدمها الظلام . كررت النظر مره أخرى لتشاهد ما يشبه فوهة مظلمة لم تعرف مدا نعي للوهلة الأولى . وفي اللحظة التالية شعرت بالألم لجزء من الثانية قبل أن يعمرها الظلام وتتوقف أنفاسها. الشيء الجيد أن الرتاج القوي منع القاتل من الدخول ولكنه لم يمنع الموت ،ولا صوت الرصاصة الذي تردد صداه فأقلق الحي كله .

(١٦)

تأخرت دورتي الشهرية ، وهذا يحدث كثيرا للفتيات . ولكن ماذا عن حركة الجنين في بطني ، وأنا لم يمسسني بشر.

(١٧)

المخيف أنها كلما ساعدته لينام في فراشه ، عاد بعد عدة دقائق ليطرق باب غرفتها . برغم أن تشخيص الطب لحالته ، شلل رباعي .

(١٨)

هبط إلى المخبأ النووي وأغلقه على نفسه وأسرته .بعد أن شاهد انطلاق أول صاروخ ذي رأس نووية نحو دولته ، أُغلق الباب برتاج إلكتروني متطور مصمم لينفتح بعد خمسة وثلاثين عاماً .وهي فترة تلاشي الإشعاع من المنطقة المصابة. المخيف أنه مع تعجله نسي أن يفعل برنامج الحياة من الكمبيوتر المركزي ، الموجود في خزانة مؤمنة خارج المخبأ النووي، وظلت جميع الخزن المؤمنة مغلقة على ما بداخلها من مخزون الطعام والشراب .

(١٩)

كان يصر كل يوم على منحها قبلة قبل النوم ، ولم تكن تمانع ، برغم يقينها بأن زوجها لم يعد بعد من رحلته المكوكية إلى القمر.

(٢٠)

انقطعت الكهرباء عن كوكب الأرض تماما ، وفي اليوم التالي لم تشرق الشمس.

(٢١)

استيقظت من النوم في الظهيرة على هزة قوية من زوجتي . كانت تقف بصعوبة على قدميها . والماء يغرق ساقيها . إنها ستلد الآن . كالملسوع قمت من النوم . وحملت الحقيبة المعدة لهذا الغرض، وجعلتها تستند على كتفي حتى نعبر الممر الفاصل إلى سيارتنا في الخارج . وبجوار السيارة رأيت زوجتي تحمل طفل رضيع . وشخص يشبهني تماما وكأنه توأمي يخرج من السيارة، أما زوجتي التي كنت أسندها منذ ثوان معدودة فقد اختفت دون أثر.

(٢٢)

ذهب لينام في فراشه غير مكترث بما تبثه تلك القناة الإخبارية، هو لا يخشى الحرب الدائرة . إنها بعيدة جداً عنه.

وفي الصباح استيقظ على صوت الانفجار . وعندما هم بالتقاط الريموت ليعيد مشاهدة الأخبار، لم يجد أطرافه ولا الريموت .

(٢٣)

شعرت بلمسته الحانية تتسلل إلى جسدها . إنها تعرف لمسة زوجها الميت جيداً ولن تخطئها .

(٢٤)

نظر إلى جثة والديه اللذين قتلتهما العصابات المسلحة ، ثم عاد ليختبئ أسفل الفراش مجدداً . بعد أن شاهد العد التنازلي للقنبلة الزمنية .

(٢٥)

كان والده يخبره ألا يذهب مع الغرباء إلى بيوتهم . الشيء المقلق الآن أنه أصبح من الغرباء . ولم يتوقف لحظة واحدة عن اصطحاب الأطفال إلى بيته . وعندما كان يشحذ سكينه ويرى نظرة الخوف على وجه الطفل . كان يوقن أن أبيه ليس أحمقاً تماماً.

(٢٦)

كان يؤمن بالعلامات . ولكنه عندما نظر للأفق . لم يعرف تحديداً ماذا تعني تلك السحب الهائلة، التي تغطي الأفق على شكل عش الغراب .

(٢٧)

كان يجلس في زنزانته متوتراً . لا يعرف لماذا أخبروه، بموعد تنفيذ حكم الإعدام .

(٢٨)

عندما انتشلوا السفينة الغارقة . لم يكن يوجد بداخلها أي أحياء . ولكن الأجهزة المتطورة . رصدت صوت نبضات قلب ضعيفة . وعندما

شقوا بطن السيدة الميتة ليخرجوا الجنين . ابتسم لهم الجنين ثم شكرهم ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

(٢٩)

أخبره والده أن الصديق الجيد هو الذي مات . لذا لم يتردد لحظة في طعنه بالسكين في قلبه ، فوالده هو أقرب أصدقائه لقلبه .

(٣٠)

لم يكن يؤمن بالأشباح ، حتى رأى شبحها يخرج من المقبرة المقابلة ، ويأتي إلى مقبرته ليتجاذب أطراف الحديث .

(٣١)

غربت الشمس في هذا اليوم ، ولم يأت النهار مجدداً .

(٣٢)

تأكد الساحر من حضور الروح عندما بدأ الوسيط في التحدث بالألمانية ..كان كله شوق لسؤال هتلر عن سبب قسوته ودمويته وهل انتحر فعلاً أم قتلوه..ولكنه عندما سمع صوت تهشم عنق الوسيط ورأى لسانه يتدلى من فمه.. ثم انطفأت الشموع .. انحصر كل تفكيره في البحث عن الباب الذي تلاشى من الغرفة تماماً.

(٣٣)

العام ٢٤١٥م.

الأمور تغيرت كثيرا جدا هذه الأيام ..حتى زوجها لا يبدو طبيعياً أبداً .. إن بشرته أصبحت شاحبة وجسده يزداد في الوزن ويترهل ..لا تعرف ماذا يحدث له ..إن هذه الأعراض مريبة ولابد من عرضه على طبيب في أقرب وقت .

وفي المساء وبعد فحص الطبيب له ..استدار مبتسماً وأخبرها أن حمل زوجها مستقر..وعليه فقط ألا يفرط في تناول الأطعمة الغير صحية. عند هذه النقطة لم تستطع أن تظل على صمتها ، وبكل قوة وجهت لزوجها صفعة مدوية جعلت الطبيب ينتفض في مكانه وهي تتساءل قائلة:

-من تلك اللعينة التي غررت بك.

(٣٤)

كان عليه أن يخفي جثتها ..لا يمكن أن يضيع مستقبله كما ضاع ماضيه ..هي من أجبرته على القيام بهذه الفعلة الشنيعة ..هي من أجبرته على قتلها ..ولكن لا يمكن إخفاء الجريمة إلا بإخفاء الجثة ..وهو لم يقتل من قبل ليكون خبيراً في الأمر.. تلك اللعينة كادت تزهق روحه بحبها واهتمامها ..ضرب جثتها بقبضته في غضب وقال:

- هل يمكن أن تساعديني الآن أيها اللعينة.

وبكل هدوء رفعت زوجته رأسها المهشم قبل أن تقول:

-يوجد كمية كبيرة من البوتاسا الكاوية في المطبخ ..يمكنك أن تستخدمها في إذابة جسدي ..هل شككت لحظة بكوني أتخلى عنك في محنتك ؟.

(٣٥)

ارتفع رنين ..الهاتف فدق قلبي في عنف عندما رأيت اسمها يتصدر الشاشة المضيئة .. ثم ارتجف جسدي بعنف ،وأنا أتذكر تلك اللحظة التي واريتها فيها التراب منذ شهر كامل .. وبقلب يكاد ينخلع من الخوف ..ضغطت زر إتمام الاتصال ليأتي صوتها المتحشرج :

-مازلت بانتظارك.

(٣٦)

لقد اتخذ قراره أخيراً .. لم يعد يتحمل تلك الضائقة المالية التي يمر بها .. لذا فإنه أعد الحبل وفي آخره الأنشوطة .. ووضع الكرسي أسفل قدميه .. دفعة بسيطة للكرسي ويتحرر من هذا العالم الكئيب..

(٣٧)

رفع سماعة الهاتف من الغرفة الثانية وراح يتنصت لزوجته التي كانت تتحدث مع عشيقها ..وعندما بدأ الحديث يزداد حرارة ..أغلق الهاتف والغضب يشعل جسده ..وعندما دار بجرعه نحو الفراش شاهد زوجته غارقة في دمائها والسكين مغروس في قلبها ..ما جعله يرتجف وجعل شعر جسمه كله يقف ..تلك اللحظة التي رأى زوجته تدلف فيها إلى الغرفة . وتجلس بجوار جثتها وتبكي.

(٣٨)

ملأ لبانيو بالماء . ثم أضاف إليه البوتاسا الكاوية تحول البانيو إلى فخ قاتل ..وهاهو ينصت لصوت خطوات زوجته التي نزعت ملابسها تمهيداً للاستحمام ..كم يعشق المزاح .

(٣٩)

عندما عبر الكمين الأخير ابتسم . كان قلبه يدق في عنف . ولكن أنف الشرطي الضخمة. لم تلتقط رائحة الجثة المتعفنة في صندوق السيارة

(٤٠)

انتهى من التهام قطعة اللحم التي أمامه ثم ابتسم . كان على يقين بأن والده كان يخدعه . وبأنه لم يلتهم من قبل لحماً بشرياً كما كان يدعي . لأن طعم اللحم البشري أقرب للحم العجل أو الدجاج . وليس كطعم الديك الرومي .

(٤١)

انطلقت بطائرتي المقاتلة . لأنفذ دوري في ذلك العرض الجوي الذي يحضره الرئيس . وعندما انتهينا وازتني طائرة صديقي جورج . الذي أشار لي بعلامة النصر . قبل أن تميل طائرته هابطة لتتبع سرب الطائرات المتجه لقاعدة التدريب الجوية . المشكلة الوحيدة ليست في جورج ،فجورج لقي حتفه بانفجار طائرته منذ عدة أيام . المشكلة كانت في ناجي . صديقي المريض الذي تركته في المستشفى العسكري قبل صعودي للطائرة . ناجي كان يجلس بجوار جورج في نفس الطائرة، ويشير لي هو الاخر بعلامة النصر فماذا يعني هذا ؟!.

(٤٢)

تناولت العقار الجديد في نشوة . أخيراً سأحصل على قوة سوبرمان . حدثت كل التغيرات المنشودة بدقة . ولكن السؤال الذي ظل يؤرقني . هل هناك سوبرمان أعمى ؟.

(٤٣)

عندما عادت السفينة الفضائية وهبطت في قاعدة جون كيندي بنعومة . لم يهبط منها أي من رواد الفضاء . لأنها كانت خالية تماماً من البشر .

(٤٤)

أظهر فحص الأشعة السينية، أن الطبيب نسي المقص بداخل بطن المريضة . وعندما فتح بطنها كانت كل أمعائها ممزقة . والغريب ان المقص لم يكن هناك.

(٤٥)

انهارت البناية . ودفن تحتها . وظل يصارع طوال أسبوع كامل . حتى أنه شرب بوله . وعندما امتدت الأيادي لتخرجه من تحت الأنقاض . أجتاحه الأمل . وعندما استعادت عيناه القدرة على الإبصار . رأى النفق الأسود المنتهي بالضياء الباهر الصاعد للسماء يظهر أمامه.

(٤٦)

عندما تحدث معه الكلب . ظن في عقله الظنون . ولكن أن يخبره فأر الحقل بأن صحته ليست على ما يرام . فهذا هو الجنون الحقيقي .

(٤٧)

عندما سمع التحذير في الراديو . لم يكن عليه الخروج أبداً من المخبأ المحصن. فتلك المخلوقات الفضائية تعشق لحم البشر.

(٤٨)

عندما أخبرتها أن عقلها يعجبني . ابتسمت في دلال ثم خلعت رأسها وقذفتها نحوي ، قبل أن تتأبط ذراعي لنخرج في موعدنا .

(٤٩)

بدأ القس في جلسة طرد الأرواح الشريرة ، وعندما أتم الطقوس ، كان الصوت الذي فاجأ الجميع آتياً من فمه بلغة غير معروفة.

(٥٠)

أن تذهب لطبيب الأسنان.

(٥١)

كان عليه أن يختار ..بين زوجته أو ابنه ..وكي لا يشعر بالذنب ذبح الاثنين ..ثم أعد وجبة العشاء لسيده .

(٥٢)

كان عليه أن يضغط الزر ليعيد تدفق الهواء لرئتيه ، ولكنه فضل أن يتمتع قليلاً بغياب الأكسجين ، وتجربه الاقتراب من حافة الموت ، وعندما شعر بالاختناق الشديد ، حاول أن يضغط الزر ،و لكن الكهرباء كانت مقطوعة.

(٥٣)

لم يصدق أخبار النمل الذي يلتهم البشر ، وقال إن هذا جنون ، ولكن عندما شعر بالعضة وهو مستلقي في الفراش ، ووجد أنه فقد جزءاً من أطرافه ، لم يجد الوقت ليشعر بالندم .

(٥٤)

أخبرني وهو يفتح باب الشقة مستعدا للمغادرة، أن الخروج من المنزل أصبح مغامرة غير مأمونة العواقب والشيء الأكثر إفزاعاً ..أن البقاء في المنزل لم يعد آمناً أيضاً .

ابتسمت له مشفقاً ، وأنا أنصت لصوت تلك الرصاصة التي اخترقت رأسه لتهشمها. فقد كنت على يقين تام بكون الرصاصة التالية من نصيبي .

(٥٥)

يقولون أن الحيوانات لديها غريزة الشعور بالخطر ، يبدو أن هذا القط أحمق ، فهو لم يشعر بي وأنا أقترب منه ، وأمزق عنقه بأسناني .

(٥٦)

انتهى من روايته الأخيرة والحزن يغمره لمصرع البطل ، ولم ينتبه إلا لطرقة الباب الثانية ، وعندما فتح الباب وجد بطل قصته متجسدا أمامه غارقا في الدماء مهشم الرأس ، وقبل أن يفقد الوعي سمعه يتضرع إليه قائلا:

- امنحني فرصة ثانية .

(٥٧)

لم يستطع النوم فقصيدته الأخيرة لم تكتمل بعد ، فتح " اللابتوب" ثم ملف الورد ليكمل ما بدأه، فوجد القصيدة مكتملة ، وملحوظة أسفلها ، لم أستطع صبراً فأكملت القصيدة . نظر حوله لغرفة الفندق الخالية ،وقلبه يخفق في شدة، ثم أغلق "اللابتوب".

(٥٨)

أيقظتني زوجتي من النوم لأنها تعاني من الأرق ، على الرغم من أن جنازتها لم تمضي عليها ساعات معدودة .

(٥٩)

أخبرها أنها إذا وقفت أمام المرآة ونطقت اسمه سيعود لها صاغراً ، وعندما انتهت من الأمر ، وجدته ملقى أمام باب منزلها ، يلهث ككلب عقور وكان الفراء يكسو جسده.

(٦٠)

نزل الجنين ميتاً ،وبرغم ذلك ظل أحفاده يحافظون على مؤسسته ويرعون شئونها.

(٦١)

عندما هشمت رأس طفلتي ، كنت أعتقد أن الأصوات ستتوقف ، ولكن هذا لم يحدث ، فعدت أتطلع إلى جسدها المنتصب أمامي، وصوت تلك الضحكات الشيطانية لا يفارق أذني .

(٦٢)

انتهى من إعداد قهوته على الموقد ، ثم تذكر أنه لم يبدل إسطوانة الغاز المنتهية منذ يومين.

(٦٣)

تقول الحكمة ، دع اللص يسرق ما يشاء ، حتى لا تتحول السرقة لجريمة قتل . وهذا ما لم أنصت له جيداً . فجثة اللص ممددة أمامي غارقة في الدماء ، والحركة في الردهة لم تتوقف .

(٦٤)

كنت أعشق هذه القطة . حتى تمنيت لو أنها ابنتي . أو أني أنجبتها من رحمي . ولكنها في النهاية ماتت ككل شيء جميل . لم أستطع أن أدفنها ، وقررت أن أجعلها جزءا مني

الشيء الذي يثير الضيق أن طعم لحمها لم يكن بهذه الروعة.

(٦٥)

عندما صرخ طفلها في الغرفة الأخرى . لم تستطع الذهاب إليه من شدة الإرهاق . وفي الصباح وجدته جثة هامدة . وعلى صدره كف دامي.

(٦٦)

عندما عادت آلة الزمن من رحلتها ، كانت خالية من روادها. وعلى شاشة المؤقت الخاص بها ، كانت العبارة الصادمة ، الزمن صفر.

(٦٧)

الوجدان الجمعي يربطنا جميعاً بأسلافنا ، وهذا ما يظهره الجهاز القادر على قراءة ذكرياتي ، وذكريات أسلافي ، المخيف في الأمر ، أن الجهاز توقف عند ذكرى أحد أسلافي ، وهو يقفز فوق الأشجار كطرزان ، ليتناول بعض ثمار الموز ، ومؤخرته الحمراء لا تتوقف عن الاهتزاز.

(٦٨)

قضم من الفطيرة في تلذذ ثم أعادها للطبق، وعندما فتح عينيه رأى تلك الديدان الصغيرة تخرج من داخلها لتسقط في قلب الطبق . لم

يستطع أن يفرغ أحشائه، ولكنه شعر بتلك الحركة المريبة بداخل معدته .

(٦٩)

مر بجوار باب المقبرة ، وطرق على بابها في تظرف . وعندما أجاب عليه الصوت من الداخل ..بال على نفسه .

(٧٠)

انفصل عنق الدجاجة بعد أن قمت بذبحها ، سقط الجسم متوتراً ليتمرغ في التراب قبل أن يسكن تماماً . أما عن الرأس فلم تتوقف عن تتبعني ونقري منذ أسبوع كامل .

(٧١)

قام بالجريمة الكاملة ، فدفن الجثة المقطعة في موقع أساس بيته الجديد، قبل أن يصب المقاول الخرسانة فوقها ليدفنها إلى الأبد ، المريب أنه في كل عام وفي موعد إتمامه الجريمة ، تهتز جدران البيت وكأن هناك من يحاول زحزحة المنزل من موضعه ليخرج.

(٧٢)

فتح الخزانة بحذر ، ونظر بداخلها ثم تنفس الصعداء ، إن وحش الخزانة قصة خرافية وليس عليه القلق بعد الآن . دخل إلى الفراش وعلى وجهة ابتسامة .فلم يلمح نظرة الخوف المرتسمة على وجه أخيه الصغير المنكمش على نفسه في ركن الغرفة البعيد.و المتعلقة عيناه بأسفل الفراش وقلبه يدق في عنف .فالذي لا يعرفه أن وحش الخزانة يفضل النوم نهاراً ، أسفل الفراش .

(٧٣)

اكتمل القمر فحدث التحول ، وعندما نظر للمرآة ، شاهد الذيل والقرنين ، لقد فشلت التعويذة.

(٧٤)

منذ تبرعت لأخي التوأم بكليتي ، كنت وما زلت أنتظر عرفاناً بالجميل ، ولكن هذا الوغد ظل على جحوده ، وظل يسلك مسلكه العنيف معي ، لم أستطع أن أبادله الكراهية بكراهية ، فقد كنت أحبه بصدق ، ولكنه مازال يحتاج لعقاب .

وعندما قتلت ذلك الشخص السخيف حمدي ، الذي لا يكف عن إزعاجنا هو وكلبه المدلل طوال الليل ، قررت أن ألقنه هذا الدرس .

لا أعرف حقيقة هل آلمه حبل المشنقة عندما تدلى عنقه منه أم لا ..ولكن هذا أكبر درس ، أن نعاقب على إثم لم نرتكبه ..لقد سيبقى جزء مني إلى الموت – كليتي – ولكني مازلت أحب أخي وما زلت أقيم على روحه الصلوات .

(٧٥)

تبعها إلى المقابر . إنه يشك في سلوكها منذ مدة . رآها تفتح مقبرة لم تنتزع جثة حديثة من داخلها وتلتهم أجزاء منها في نهم . ابتسم في عصبية . إنها غولة . مسح الدماء الجافة من فوق شفتيه ، وهو يتطلع إلى بطنها المتكورة ، وفكر لوهلة . ماذا يمكن أن تنجب غولة من مصاص دماء.

(٧٦)

إنتهت لتوها من سلخ الجلد لتفصله عن اللحم، لتظهر الأوتار الحمراء اللذيذة ، واللحم الرائع ، مع تدفق الدماء بغزارة لتغرق ملابسها .كان الألم عاتي ولكنها لم تبال ، سلخت أول شريحة من لحم فخذها ورأسها يدور من الألم ، وبرغم ذلك كانت في قمة سعادتها ،وهي تناول صغيرها قطعة من لحمها وهي تردد :

- لتأكل لحم أمك الآن ..ولكن لتتذكر ..من تطعمك لحمها ..قادرة على التهامك حياً ..لو تنكرت لها كأبيك .

ابتسم الطفل لمداعبتها ، قبل أن ينقض على قطعة اللحم ليفتك بها .وعيناه معلقتان بوجه أبيه الذي فارق الحياة ، والمتدلي من خطاف الجزار المعلق في السقف ، وهو يمني نفسه بقطعة لحم أكبر.

تمت بحمد الله

الفهرس

صدر للمؤلف

- وبدأ الظلام – رواية
- حديث الموتى – مجموعة قصصية
- فى مملكة الغيلان – رواية
- الملعون – رواية
- نصف حياة – رواية
- الشفق الأسود – رواية
- همسات - رواية
- عزيف – رواية
- UFO - رواية
- أيام الرماد – رواية

للتواصل مع الكاتب

A_elmenofy@yahoo.com

https://www.facebook.com/a.elmenofy?ref=tn_tnmn

جروب عزيف

https://www.facebook.com/groups/١٤٦١١٠٨٠٢٤٠٧٧٢٠٩٧